عنوان الماستر: نقد حديث ومعاصر

السّداسيّ: الأوّل

اسم الوحدة: وحدة التّعليم الأساسيّة.

اسم المادّة: بلاغة التّأويل (1)

الرّصيد: 04

المعامل: 02

أهداف التّعليم: أن يتعرّف الطّالب على المنهج التّأويليّ منهجاً نقديّاً جديداً.

المعارف المسبقة المطلوبة: يكون الطّالب على معرفة مقبولة بمناهج النّقد المختلفة.

محتوى المادّة:

1-الجهاز المفاهيمي.

2-قواعد التّأويل وحدوده.

3-التّيّارات التّأويليّة.

4-بلاغة التّأويل والمؤوّل وانسجام التّأويل.

5-المعنى وبلاغة التّأويل.

6-من بلاغة النّصّ إلى التّأويليّة البليغة.

7-الأساس التّقابلي في البلاغة العربيّة.

8-الفهم بالتّقابلات.

9-التّقابل في النّص الرّوائي.

10-التّقابل وتوابعه في خطاب التّفسير.

11-بنية التقابل في الخطاب الشّعريّ.

12-تأويل ذي الوجهين في البلاغة العربيّة: الكناية، التّعريض، التّلميح، التّهكّم، التّوريّة.

13-التّأويل والمفارقة.

14-تقابل السّياقات.

المراجع الأساسية للمقياس:

1. إبراهيم أسيكار وآخرون، **النّموذج التّأويليّ التّقابلي، معالم التّأصيل ومستويات التّنزيل**، دراسات محكّمة في أعمال محمّد بازي، مقاربات للنّشر، المغرب، 2018

2. حسان الباهي، **اللّغة والمنطق، بحث في المفارقات**،

3. السيّد أحمد عبد الغفار، **ظاهرة التّأويل وصلتها باللّغة**، دار المعرفة الجامعيّة،القاهرة، ط/، 1998

4. شفيع السيّد، **قراءة الشّعر وبناء الدّلالة**، دار غريب، القاهرة، ط/، 1999

5. عـــادل مصطفى، **فهم الفهم، مدخل إلى الهرمنـــوطيقا، نظريّة التّأويل من أفلاطـون إلى جـــادامـير**، دار رؤية، القـــاهرة، ط1، 2007

6. عبد الرّحمن حبنكة الميداني، **البلاغة العربيّة: أسسها وعلومها وفنـــونها**، دار القلم، دمشق ـ سوريا، ط1، 1996

7. عبد الله السّرحان، **التدبّر وعلاقته بمصطلحات: التّأويل والاستنباط والفهم والتّفسير**، مكتبة الملك فهد، الرياض، السعوديّة، ط/، 2009.

8. علي حرب، **التّأويل والحقيقة، قراءات تأويليّة في الثقافة العربيّة**، دار التنوير، بيروت، ط2، 2007

9. علي الشبعان، **الحجاج والحقيقة وآفاق التّأويل**، دار الكتاب الجديد المتّحدة، الأردن، ط1، 2010.

10. عمارة ناصر، **الفلسفة والبلاغة – مقاربة حجاجيّة للخطاب الفلسفي**–، الدّار العربيّة للعلوم، بيروت–لبنان، ط1، 2009

11. ــــــــــــ، **الهرمينوطيقا والحجاج، مقاربة لتأويليّة ريكور**، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2014

12. محمّد بازي، التّأويليّة العربيّة، نحو نموذج تساندي في فهم النّصوص حازم والخطابات، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2010.

13. ـــــــــــــ تقابلات النصّ وبلاغة الخطاب، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2010.

14. ـــــــــــــ، **العنوان في الثقافة العربيّة، التشكيل ومسالك التأويل**، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2012

15. ـــــــــــــ **نظريّة التّأويل التقابلي، مقدّمات لمعرفة بديلة بالنّصّ والخطاب**، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2013.

16. ـــــــــــــ **صناعة الخطاب، الأنساق العميقة للتأويليّة العربيّة**، دار كنوز المعرفة، الأردن، ط1، 2015.

17. ـــــــــــــ **البنى التّقابليّة، خرائط جديدة في تحليل الخطاب**، دار كنوز المعرفة، الأردن، ط1، 2015.

18. ـــــــــــــ، **البنى الاستعاريّة، نحو بلاغة موسّعة**، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2017.

19. ناصر شبانة، **المفارقة في الشعر العربيّ الحديث**، دار الفارس، الأردن، ط1، 2000

20. هيثم جديتاوي، **المفارقة في شعر أبي العلاء المعري، دراسة تحليلية في البنية والمغزى**، دار اليازوري، إربد، الأردن، ط/، 2011.

مقدّمة

عرفت المنهج التّأويلي في الوطن العرب إبّان العقود الأخيرة تقدّماً مذهلاً استطاع أن يؤسّس لتأويلية عربيّة تضمّ اتجاهات تأويليّة متعدّدة؛ كالتّأويلية التداولية (الحجاجية) والتأويلية الثقافيّة والتأويليّة البليغة، وهذه كلّها توجّهات تأخذ أسنادها المعرفيّة من التراث التأويليّ العربي والإسلاميّ وتستأنس بجديد النظريات التأويليّة الغربية ولا تقصيها، ممّا سمح بتأسيس تأويليّة عربيّة لها أصولها ومصطلحاتها وإجراءاتها، وخير دليل على هذا اتّجاهُ التّأويليّة البليغة الذي يضمّ نظريّتين واسعتين هما: نظريّة التأويل التقابلي، ونظريّة التساند التأويليّ، ولخصوبة مادّتها وسعة أسنادها لازالت تتبلور مفاهيمها وتتّسع دائرتها.

ولأهميّة هذا التوجّه التأويليّ وآفاقه القرائيّة الواسعة بُرمج كمقياس لطلبة السنة الأولى ماستر شعبة الدراسات النّقدية، تخصّص النقد الحديث والمعاصر. وتكمن أهميّة هذا المقياس في فتح أفق الممارسة النقديّة والقرائيّة للطالب، كما أنّه يبرز جانباً من نبوغ رواد المنهج التأويليّ في الوطن العربيّ.

وهذه محاضرات في بلاغة التّأويل جمعت حصيلة سنوات من تدريس هذا المقياس، كما ساعدنا في تبسيط مفاهيمها صلتنا بصاحب النظريّة، وقد راعينا جانب التبسيط في طرح أهمّ القضايا التي تتناولها بلاغة التأويل حرصاً على تقديم المادة في ثوب يتلقّاه الطالب بالقبول والفهم.

تتناول هذه المحاضرات جانباً تمهيدياً يتناول بعض القضايا الخاصّة بالتأويل والممهّدة لظهور بلاغة التّأويل، كتعريف التّأويل وذكر الخلاف الحاصل حوله، ثمّ الحدود التي بيّنت لنا تجاوز بعض الممارسات لحدود القراءة الرّشيدة والخلّاقة، ومن ثمّ عرّجنا على التيارات التأويليّة العربيّة التي صار التعرّف عليها ضرورة ملحّة في وقت طغى فيه الاشتغال بالتأويليّة الغربيّة، لتكون المحاضرات الباقية تعريفاً ببلاغة التأويل وأهمّ قضاياها، ثمّ نظريّة التأويل التقابليّ وأهم إجراءاتها وتطبيقاتها على بعض الخطابات الأساسيّة، ومن هناك فصّلنا في بعض الظّواهر

النصّيّة المستفزّة، لنختم بالحديث عن خطر السياق في عمليّة التأويل وجهود بلاغة التّأويل في التعامل البليغ مع مختلف السياقات.

هذا وقد كانت مؤلّفات محمّد بازي رائد هذا التوجّه سندنا الكبير في إعداد هذه المحاضرات وهي على حسب التوالي الزمني: (**التّأويليّة العربية**، نحو نموذج تساندي في فهم النصوص والخطابات)، (**تقابلات النصّ وبلاغة الخطاب**، نحو تأويل تقابليّ)، (**العنوان في الثقافة العربيّة**، التشكيل ومسالك التّأويل)، (**نظريّة التأويل التقابليّ**، مقدّمات لمعرفة بديلة بالنصّ والخطاب)، (**صناعة الخطاب**، الأنساق العميقة للتأويليّة العربيّة)، (**البنى التقابليّة**، خراط جديد في تحليل الخطاب)، (**البنى الاستعاريّة**، نحو بلاغة موسّعة)، كما كنّا في تواصل دائم معه ليبصّرنا بكلّ جديد ويزيل عن أذهاننا كلّ لبس.

وكلّنا أمل في أن تكون هذه المحاضرات سنداً لطالب المقياس، وباباً لولوج عالم التأويل العربيّ المعاصر، وإجراءً جديداً لفهم النصوص.

والله الموفق والهادي إلى سواء الصراط.

المحاضرة الأولى:

الجهاز المفاهيميّ

لا يمكن الدّخول إلـــى أيّ علم دون تحديـــد أهمّ المصطلحات التي تشكّل حيّزه المعرفيّ؛ فالمصطلحات هي مفـــاتيح العلوم، ومن حدّد مصطلحـــات العلم أدرك جـــانباً كبيراً منه.

أوّل ما نلاحظه ونحن نطرق باب مصطلح (بلاغة التّأويل) هو أنّه من المصطلحات المركّبة؛ فهو يتكوّن من مصطلحين بارزين في الفكر الإنسانيّ هما: البلاغة والتّأويل، ولا يمكن تحديد هذا المصطلح المركبّ إلّا بالتّعريج على ما يحيل إليه المصطلحان المشكّلان له، ومن هنا ستكون هذه المحاضرة مهاداً تأصيليّاً لبلاغة التّأويل، وسنبسط القول فيها ليتّضح لنا من خلالها مبرّرات وجود بلاغة التّأويل.

1 ــ البلاغة:

أ/ البلاغة لغة: إنّ المعرفة بالجذر اللّغويّ للمصطلح مرحلة أساسيّة من مراحل تحديده وفهم معناه، لأنّ واضع المصطلح في بادئ أمره يراعي الاستعمال اللغويّ له، وقد يبقى المصطلح وفيّاً للاستعمال اللغويّ، وقد يتغيّر بحسب الترسّبات المعرفيّة التي تكتنفه إمّا لكثرة تداوله، وإمّا لتنازع أكثر من فرع معرفيّ فيه.

إذا رجعنا إلى مصطلح البلاغة وجدناه يعني في اللّغة الوصول أو مقاربة الوصول، فنقول «**بَلَغَ المكان: وصل إليه، وكذا إذا شارف عليه، ومنه قوله تعالى:﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أي قاربنه، ... و(التَّبْلِيغُ) الإيصال**»[1] هذا المعنى الأوّل الذي تحيل إليه مادّة (بَلَغَ)، ويدور كلّه حول الوصول والانتهاء، كما تحيل إلى معان أخرى؛ فـــ « **(البالغ) الجيّد، .... و(البُلَغِينُ)**

[1]– محمد بن أبي بكر الرازي، **مختار الصّحاح**، تحقيق: يوسف الشيخ محمّد، المكتبة العصريّة، بيروت ـ لبنان، ط5، 1999، مادّة (بلغ)، ص 26.

الدّاهية، وهو في حديث عائشة»[1] وهاهنا يتّضح المعنى اللّغويّ الكثيف الذي أفاد منه البلاغيّون عند إطلاق مصطلح البلاغة، فهي تجمع بين الدّهاء وسعة العقل وغزارته، وبين الجودة ثمّ الانتهاء وهو الغاية التي يبلغها كلّ فطن عارف بقوانين الجودة وأسرارها.

ب/ البلاغة في الاصطلاح:

تعدّدت تعاريف البلاغة بتعدّد المشتغلين بها خاصّة في الثقافة العربيّة، غير أنّ أكثرها تتّفق على أنّ البلاغة هي: «**مطابقة الكلام لمقتضى حال من يخاطب به مع فصاحة مفرداته وجمله**»[2] ومن هذا التّعريف نستشفّ شمولية البلاغة وإحاطتها بكلّ ملابسات الخطاب، من مخاطِب ومخاطَب وخطاب ثمّ سياق.

إنّ هذا الكمال الخطابي الذي اهتمّ به البلاغيّون الأوّلون ينبئ عن وعي حقيقيّ بأهمّيّة المخاطَب في اكتمال عقد الخطاب، ومن هنا يلخّص الجاحظ القضيّة بقوله: «**إنّ مدار الأمر على البيان والتّبيين، وعلى الإفهام والتّفهيم ... والمُفهِم لك والمتفهّم عنك شريكان في الفضل، إلّا أنّ المُفهِم أفضل من المتفهّم**»[3]، نستخلص من نظرة الجاحظ إلى البلاغة الإشارات التّالية:[4]

-البلاغة وضوح الدّلالة؛ – البلاغة الإيجاز؛

-البلاغة تخيّر اللّفظ وحسن الإفهام؛ – البلاغة إيصال القصد؛

-البلاغة أن يسابق المعنى لفظه واللّفظ معناه؛ – البلاغة إفهام الحاجة على مجاري كلام العرب.

---

[1]– المصدر السابق، ص ن.

[2]– عبد الرّحمن حبنكة الميداني، **البلاغة العربيّة: أسسها وعلومها وفنـــونها**، دار القلم، دمشق ـ سوريا، ط1، 1996، ج1، ص129.

[3]– أبو عمر الجاحظ، **البيان والتبيّن**، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط/، 1423، ج1، ص34.

[4]– ينظر: محمّد بازي، **نظريّة التّأويل التّقابلي**، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2013، ص ص 178–179.

يتبيّن من خلال هذه الإشـــــارات أنّ الهدف الأساس من البلاغة هو إيصال المقصـــود، والعمل على إقناع المخاطَب به في أوضح صورة وأبهى حلّة، وكلّ هذا باستعمال خصائص اللّغة وإمكاناتها المتعدّدة.

2/ التأويل:

التّأويل من المصطلحات التي يكتنفها الغموض، ويشوبها الالتباس، فإذا أردنا تتبّع تعريفات هذا المصطلح اصطدمنا بكمّ رهيب من التّعريفات التي تختلف اختلافاً بيّناً، وهذا راجع إلى كثرة الحقول المعرفيّة التي يدور فيها مصطلح التّأويل، كما أنّ تحديده في الثّقافة العربيّة يختلف عن تحديده في نظيرتها الغربيّة تعريفاً وممارساً ومدوّنةً.

أ/ التّأويل في الثّقافة العربيّة:

تبوّأ التأويل مرتبة عالية وحاز منزلة رفيعة في الثّقافة العربيّة؛ فلا نكاد نجد علماً إلّا وللتّأويل فيه نصيب، ناهيك عن العلوم التي بُنيت عليه كالتّفسير وشروح الحديث وشروح الدّواوين الشّعريّة وكذلك علم الكلام. ونجد في هذا التّراث الضّخم أروع الأمثلة على نبوغ أعلامه وتميّز أربابه، وهذا ما يجعلنا نصطدم بكمّ رهيب من التعريفات التي تستجيب في معظمها للموجهات الإيديولوجية للمؤوِّل. وقبل تناول التعريفات الاصطلاحيّة المتعدّدة له لا بدّ من بيان أصله اللّغوي.

ـ التّأويل في اللّغة:

للتّأويل في اللّغة معان متعدّدة يجمعها معنيان:[1]

الأوّل: بمعنى التّفسير.

الثّاني: بمعنى المرجع والعاقبة والمصير.

[1]– عبد الله السّرحان، **التدبّر وعلاقته بمصطلحات: التّأويل والاستنباط والفهم والتّفسير**، مكتبة الملك فهد، الرياض، السعوديّة، ط/، 2009، ص199.

أمّا المعاني الأُخر فإنّها تؤول إلى هذين المعنيين كالتّغيير والوضوح والتّرجيع وغيرها، وهذا الاختلاف الدّلالي للفظ التّأويل له الأثر البارز في الاختلاف الواسع في التّحديد الاصطلاحيّ للتّأويل.

ـ التّأويل في الاصطلاح:

التّأويل من أشدّ المصطلحات تفلّتاً وتمنّعاً عن الضّبط والتّحديد، وهذا راجع إلى كثافة أصله اللّغويّ أوّلاً، ثمّ إلى كثرة الحقول المعرفيّة المستعمِلة له كالفلسفة والنحو والتّفسير والأصول وعلم الكلام والنّقد ـ كما قدّمنا ـ، خاصّة إذا أخذنا في الحسبان طبيعة الفكر العربيّ والإسلاميّ في القرون الأولى؛ حيث إنّه فكر تأويليّ بالدّرجة الأولى نظراً لخصوصيّة النّصّ الذي يعتبر مبدأ كلّ تأويل؛ ونقصد بذلك النّص القرآنيّ الذي يمتاز بمرونته اللّغوية «**التي تُعدّ مزيّة فيه لا منقصة**». ومن هنا نجد أنفسنا أمام تراث تأويليّ عريض ينبئ عن وعي دقيق بظاهرة الفهم ويكشف عن نبوغ عجيب لدى العلماء الأوّلين، وانفجر عن هذا الاهتمام بالتأويل زخم من الممارسات التّأويليّة التي أفضت إلى نشوء جدل تأويليّ بين الفروع المعرفيّة من جهة، وبين مدارس الفرع الواحد من جهة أخرى. وفيما يلي نماذجُ من التعريفات اجتهدنا في تصنيفها حسب الحقول المعرفيّة السّائدة في الثّقافة العربيّة حتّى نقف على التّغيّر الحادث لهذا المصطلح انعكاساً للجديد المعرفيّ المتسارع واستجابة للطّارئ الثّقافيّ المتنوّع.

1ـ مفهوم التّأويل في التّراث العربيّ:

أ/ علماء الكلام:

يعدّ علم الكلام[1] من العلوم التي اختصّت بها الأمّة الإسلاميّة، وهو من أكثر العلوم اعتماداً على التّأويل، بل هو السند والمتّكأ الذي لا غنى لطالب الكلام عنه، وهذه أمثلة من تعاريف علماء الكلام لمصطلح التّأويل:

---

[1]– علم الكلام: «**من العلوم الاعتقادية التي تشملها العلوم الملية، وهو يتعلّق بتقرير الاعتقادات المنقولة عن مبلّغ الرّسالة وتشييدها بالأدلّة المعقولة، وتأييدها وتوهين مخالفها بأساليب المناظرة المحمودة، بحيث يقع الانسياق**

1/ يعرّفه أبو منصور الماتريديّ (ت 332هـ) بقوله: «**هو ترجيح أحد المحتملات بدون القطع**»[1]، نستخلص من تعريف الماتريديّ أنّ التّأويل ينطلق من الاحتمال الناتج عن تعدّد المعنى، ويكمن جهد المؤوِّل في تغليب معنى على غيره، ومن الإشارات المهمّة التي يحملها هذا التّعريف أن التّأويل فعل يتّسم بالانفتاح واللانهائيّة.

2/ ومن علماء الكلام الفخر الرازيّ (606هـ)، الذي جمع بين رئاسة علم الكلام وإمامة علم الأصول ويعدّ كذلك من أئمة التّفسير. ويعرّف التّأويل بقوله: «**هو صرف اللّفظ عن ظاهره إلى معناه المرجوح مع قيام الدّليل القاطع على أنّ ظاهره مُحال**»[2]، يرجع الرّازيّ فعل التّأويل إلى وجود مثير يجعل الكلام غير مستقرّ على معنى، وفي هذا التّعريف نرى الرّازيّ قد أضاف أمراً مهمّاً ألا وهو ضبط الممارسة التّأويليّة بوجود المبرّر وهو ما اصطلحنا عليه سابقاً بالمثير، ولا شكّ أنّ هذا التقنين الذي فرضه الرّازيّ يعتبر ردّة فعل عن غلاة التّأويل من علماء الكلاميّة وأهل التّصوّف الذين جعلوا كلّ نصّ قابلاً للتّأويل إرضاء لموسوعيّة فكرهم وإشباعاً لجموح عقولهم واستجابة لمكبّلات تعصّبهم.

ب/ علماء أصول الفقه:

علم الأصول من العلوم المهمّة التي احتفت بها الأمّة وكثر طالبوه والمشتغلون به لشدّة حاجة النّاس إليه، كيف لا وهو العلم الذي يعنى «**بأحوال الأدلّة الموصلة إلى الأحكام الشّرعيّة ... وأقسامها واختلاف مراتبها**»[3]، ومن هنا كان علماء الأصول أكثر النّاس تعاملاً مع النّصوص الشرعيّة ومع هذا هم أشدّ النّاس حذراً في استنطاقها، ولهذا سنجد تعريف التّأويل

والتّكليف القلبي ويثبت الإيمان والتّصديق ليحصل مع ذلك الانسياق أو التّكليف القالبيّ.» حمو النّقاري: **منطق الكلام؛ من المنطق الجدلي الفلسفي إلى المنطق الحجاجي الأصولي**، ص 47.

[1]– السيّد أحمد عبد الغفار، **ظاهرة التّأويل وصلتها باللّغة**، دار المعرفة الجامعيّة، القاهرة، ط/، 1998، ص 17.

[2]– الفخر الرّازيّ، **أساس التّقديس في علم الكلام**، ص222. نقلاً عن: السيّد أحمد عبد الغفار، **ظاهرة التّأويل وصلتها باللّغة**، ص18.

[3]– حمو النّقاري، **المنهجيّة الأصوليّة والمنطق اليوناني**، دار رؤية، القاهرة، ط/، 2010، ص 10.

عندهم يمتاز بالحيطة والصّرامة لأنهم في تأويلهم ينتقلون من الخطاب إلى الفعل، وخير دليل على ذلك **الماورديّ (450هـ)** الذي نراه يقدّم تعريفاً مغايراً لما هو سائد في عصره؛ **فـ«التّأويل عنده لا يرجع إلى تفاوت فطر النّاس وتباين قرائحهم على الفهم، وبالتالي إلى انقسام الشّرع إلى ظاهر وباطن بسبب ذلك ... وإنّما يكمن بالدرجة الأولى في طبيعة الكلام نفسه، فالتّأويل حسب رأي الماورديّ هو احتمال قائم في القول، وإمكان تقتضيه اللّغة»**[1]، ينبئ هذا التّعريف عن وعي دقيق من لدن الماورديّ بما وصل إليه حال النّاس جرّاء المبالغة في التّأويل، ولهذا جعل الممارسة التأويليّة منضبطة بإمكانات اللّغة التي تستجيب للمستجدّات الحادثة وتتحمّل النّوازل الطّارئة.

ج/ الفلاسفة:

اهتمّ علماء المسلمين بالفلسفة وانبهروا بها، كونها تلبّي حاجة عقولهم الموسوعيّة، وتسدّ فاقة نفوسهم الجامحة نحو الفهم، وإذا أردنا الحديث عن الفلسفة الإسلاميّة وجدنا مثالَها دون مرية **أبا الوليد ابن رشد** (ت559هـ)، الذي حاول في أكثر كتبه أن يربط الوحي بالعقل، ولذلك جعل من التأويل «**قراءةً فلسفيّةً للوحي**»[2] هذه العبارة الموجزة التي تبيّن المنهج التّأويليّ لابن رشد وغيره من فلاسفة الإسلام ومن سار على خطاهم من بعض المفسّرين وعلماء الكلام، وخلاصة هذا المنهج هي جعل التّأويل فعلاً حجاجيّاً غايته الاستدلال على مسائل الشّرع بالعقل، وهنا نلمح ذاك المنعطف الكبير في الممارسة التّأويليّة الإسلاميّة، وهذا المنعطف فتح به روّادُه على أنفسهم باب النّقد وجعلوا أنفسهم رميّة لسهام الردّ.

هـ/ الصوفيّة:

برز التيار الصّوفيّ في الثّقافة الإسلاميّة، وخيّمت نزعته على المعارف المهمّة في تلك القرون، ليفرض هذا التوجّه ذاته مدرسة فكريّة لها منهجها الخاص. وإذا رجعنا إلى تصوّر هاته

---

[1]- علي حرب، **التّأويل والحقيقة، قراءات تأويليّة في الثقافة العربيّة**، دار التنوير، بيروت، ط2، 2007، ص36.

[2]- المرجع نفسه، ص 39.

المدرسة لمفهوم التّأويل وجدنا (العقل الصّوفيّ عقلاً تأويليّاً بامتياز)[1]، يمتح من التأويل كلّ مبادئه، بل وينتقد كلّ الممارسات التأويلية المزامنة له كونها تتخبّط في الظّاهر وتتحرّك في المشاهد.

لقد انتحى أهل التّصوّف منحىً مغايراً لما كان سائدا؛ كون هذا السّائد لا يليق بلغة الله التي تطوي خلفها بحاراً من الإشارات وأكواناً من الألغاز، فامتطى القوم لجّة الخيال خاطّين بذلك جنساً تأويليّاً أذهل المفكرين عرباً وعجماً.[2] ومن هنا تحرّروا من اللّغة ومن الخطابات إلى تأويل الظّواهر والكون بصفة عامّة.

ومن هنا نلاحظ أنّ التّأويل في التّراث العربيّ قد استهوى كلّ الفروع المعرفيّة في تلك القرون، ممّا جعل الأفهام تختلف في تعريفه ومن ثمّ استخدامه كآلية قرائية، وهذا ما أفرز لنا خصومات معرفيّة كثيرة، ترجمتها الفرق والمذاهب، ممّا يجعلنا نسلّم بخطر التّأويل وآثاره على الفرد والجماعة.

2 / التّأويل في الفكر العربيّ المعاصر:

لئن كان التّأويل في الثّقافة العربيّة القديمة ذا منشإ دينيّ خالص، فإنّه في العصر الحاضر لا يعدو أن يكون استجابة للوافد النّقديّ الغربي، غير أنّنا لا يمكن لنا أن نقصي تلك المحاولات الرّائدة التي استفزّها سيل النّظريات الغربيّة فانبرت إلى التّراث باعثة له مستأنسة بما وافق خصوصيّة العقل والخطاب العربيّن، ومن نجد محاولات تأويليّة رائدة في العالم العربيّ، كعلي حرب ومحمّد مفتاح وعبد الفتاح كليطو ونصر حامد أبو زيد ومحمّد بازي وعمارة الناصر، وغيرهم، ويمكن لنا أن نتقصى بعض التّعريفات لمصطلح التّأويل لنرى ما طرأ عليه من تغيّر وما حدث له من تطوّر.

---

[1]- علي حرب، **التأويل والحقيقة**، ص 40 بتصرّف يسير.

[2]- ينظر: علي الشبعان، **الحجاج والحقيقة وآفاق التّأويل**، دار الكتاب الجديد المتّحدة، الأردن، ط1، 2010، ص ص 341 . 343.

وإذا أردنا أن ننطلق من القراءة المعاصرة الواعيّة للتّراث المنفتحة على الوافد الغربيّ، فإنّ علي حرب خير من يمثّل ذلك، فقد انطلق في تحديد مجال القراءة التّأويليّة من مختلف الممارسات التّراثيّة وكذا المعاصرة، فهو يحدّد حقيقة هذه القراءة بقوله: «**تستبعد القراءة التّأويليّة التّصنيفات الشّائعة والمألوفة للأفكار والنّصوص وللعلماء والمؤلّفين، إلى عقليّ ونقليّ، أو أصيل ودخيل، أو أصالة وحداثة، أو مثالي ومادي ... ليس لأنّ هذه الثّنائيات لا حقيقة لها، بل لأنّ هذه القراءة تتعدّى تلك التّصنيفات، إذ هي تتأمّلها وتعيد بذلك تعريفات المصطلحات والمفاهيم**»[1]، لقد تعمّدنا نقل هذا التّعريف على طوله نظراً لأهمّيته، إذ أنّه يحّد حقيقة القراءة التّأويليّة، فهي في نظره ممارسة جامعة لكلّ الممارسات القرائيّة، بل وتتّخذ منها منطلقات لمسارات قرائيّة أوسع، وعلى هذا الأساس فإنّ علي حرب يشدّد على أهمّية هذه القراءة، وعلى صعوبة الخوض فيها، كما يعقد آمالاً كبيرة على الرهانات التي تقدّمها.

ولا يمكن لنا أن نبرح هذا العنصر دون التّعريج على الباحث **محمّد بازي** صاحب مشروع بلاغة التّأويل، الذي بدوره شدّد على أهمّية القراءة التّأويليّة وعلى آثارها المهمّة على الأفراد والأمم، منطلقاً في ذلك من التّراث التّأويليّ الإسلاميّ العريض الذي اتّخذ من التّأويل معولاً لتوسيع الشّرخ العقائديّ والانقسام المذهبيّ، ولذلك فإنّه يقدّم تعريفاً دقيقاً واعياً لهذا المصطلح بقوله: «**إنّ التّأويل تفاعل معرفيّ بين بنية ذهنيّة وبنية نصّيّة وبنية سياقية مؤطِّرة لهما، وبنية من النّصوص الغائبة والعلوم المرجعيّة**»[2]، يحيـــط هذا التّعريف بحقيقة الممارسة التّأويليّة، وكذا بالآليات التي تتّكئ عليها، والنّاظر في هذا التّعريف يرى أنّه خلاصة مكثّفة لكثير من التّعريفات التي اطّلع عليها سواء أكانت ممّا حمله التّراث أو مما جادت به النظريّات التأويليّة المعاصرة، فالتّأويل بمفهومه الواسع هو حوار بين المؤوِّل والمؤوَّل، حوار بين عقليتين

---

[1]– علي حرب، **التّأويل والحقيقة**، ص 17.

[2]– محمّد بازي، التّأويليّة العربيّة، **نحو نموذج تساندي في فهم النّصوص والخطابات**، الدار العربيّة للعلوم، بيروت ـ لبنان، ط1، 2010، ص 23.

وفكرين ومقصدين، بل وسياقين، ومن هنا فالتّأويل عند محمّد بازي ليس فقط تعاملاً مع البنية النّصيّة فقط، وإنّما هو تعامل مع محمول تلك البنية.

من خلال هذين النموذجين البارزين في السّاحة التّأويليّة العربيّة المعاصرة يتّضح لنا أنّ الفكر العربيّ المعاصر استطاع أن يؤسّس نظرته التّأويليّة المتماشية مع الأصل التّراثيّ الضخم وجديد الدّرس النّقديّ والفلسفيّ المعاصرين.

ب/ التّأويل في الثّقافة الغربيّة:

1 ـ أصول المصطلح في الثّقافة الغربيّة القديمة:

إنّ المتتبّع لتاريخ هذا اللّفظ وأصل استعماله ينتهي إلى أنّ هذا المصطلح من المصطلحات الضاربة في تاريخ الفكر الغربيّ، إذ يمكننا التّأصيل له من خلال تراث اليونانيّين، إلى الممارسات اليهوديّة ثمّ المسيحيّة المحاولةِ فهمَ الكتبِ المقدّسة، وصولاً إلى المنعطف التّأويليّ المعاصر من لدن دلتاي وشلاير ماخر، ثمّ سيل التّيارات والنّظريات التّأويلية التي هيمنت على أغلب فروع المعرفة الغربيّة المعاصرة.

ـ الأصل اللّغوي للتّأويل:

ارتبط التّأويل (الهرمينوطيقا)عند الغربيّين بأسطورة **(هرمس)** التي تجعل من شخص يحمل هذا الاسم رسولا بين الآلهة، ورسولاً كذلك بين الآلهة والبشر، ويتلقّى هذا الرّسول المعارف مرمّزة أو مشفّرة، ثمّ يبلّغها إلى بلغة أخرى تناسب عقول البشر، فصار كلّ من يقوم بقراءة النّصوص المقدّسة يسمّى هرمسيّاً[1]، ثمّ تطوّرت اللّفظة إلى أن أصبحت (hermeneutics)، ورغم وجود بعض المصطلحات الدّالة إلّا أنّ الثقافة الغربيّة اختارت هذا المصطلح، وجعلت على هذا الفنّ (الهرمينوطيقا)

[1]– تنسب لهذا البطل الأسطوريّ مهام كثيرة اكتفينا بما يناسب المقام. ينظر: عماد حاتم، **أساطير اليونان**، دار الشرق العربيّ، بيروت ـ لبنان، ط/، 1994، ص95.

ـ مفهوم التّأويل:

يمكن لنا أن نتلمّس بعض النّظرات اليونانيّة في قضيّة التّأويل انطلاقاً من تراث السّفسطائيّين الذي ربطوا التّأويل باللّغة وتفطّنوا إلى ما فيها من مساحات تجعل القول منفتحاً على تعدّد المعنى، وهذا ما جعلهم يخطّون خطّاً خطابيّاً متميّزاً؛ ألا وهو الخطاب السّفسطائيّ الذي ثار عليه أغلب حكماء اليونان بحجّة أنّه خطاب غير دقيق، ومغالط في كثير من الأحيان.

ولكنّ التّأويل بمفهومه الذي يقترب من الممارسة الحديثة نجده عند أرسطو بغض النّظر عن التّقنين المنطقيّ الذي فرضه عليه، إلّا أنّه يجعله مبدأ العمليّة الخطابيّة.

يرى أرسطو في كتابه (peri hermeneias) أنّ التّأويل سابق للنّطق[1]، وهو هنا يحيلنا إلى قضيّة تأويليّة معاصرة هي محلّ خلاف بين فلاسفة التّأويل، ألا وهي أسبقيّة التأويل على الكتابة، وأرسطو في كتاب العبارة، يرى أنّ الكلام هو محصّل تأويليّ، وممّا يجعل قول أرسطو أقرب إلى الصّواب، أنّه جعل التّأويل أوّل مرحلة من مراحل الاستدلال حين جعل أرسطو عمليات الفكر ثلاثاً؛ اثنان منها متعلّقة بالتّأويل:[2]

- فهم الأشياء (الموضوعات) البسيطة.
- عمليات التّجميع والتّقسيم.
- عمليات الاستدلال من الأشياء المعلومة إلى الأشياء المجهولة.

وعلى أساس هذا التّقسيم فإنّ عمليّات الاستدلال تنبني على ما تقدّمه التّصوّرات الأوليّة (الإعلان، الإقرار، العبارات) ـ كما يسمّيها أرسطو ـ، وصدقُ النّتائج مرهون بصدق المقدّمات/ التّصوّرات وطريقة إبلاغها، ومن هنا يصبح التّأويل حلقة مهمّة في عمليّات الاستدلال، ولا يمكن لها أن تتخلّص منه؛ وآية ذلك أنّ العبـــارات التي يستخدمها المنطقيّ هي نتاج فعل

---

[1]– عزّت السيد أحمد، حدود التّأويل، **حدود التّأويل**، مجلة جامعة دمشق، المجلّد28، العدد الأوّل، 2012، ص 518.

[2]– ينظر: عــادل مصطفى، **فهم الفهم، مدخل إلى الهرمنــوطيقا، نظريّة التّأويل من أفلاطــون إلى جــادامير**، دار رؤية، القــاهرة، ط1، 2007، 45–46.

تأويلـــيّ، كما أنّ ما يتلقّاه من الخصم من معطيات يحتاج كذلك إلى تأويل، وفي هذا التوجّه الذي توجّهه أرسطو في النّظر إلى التأويل يشير إلى إشكالات كثيرة تثار اليوم على مستوى أسبقيّة التّأويل للكتابة والنّقد ـ كما قدّمنا ـ وهنا تطهر قيمة التّأويل في الثقافة الغربيّة القديمة، ومدى حضورها في الخطاب الفلسفيّ على وجد الخصوص.

2/ التّأويل في الثقافة الغربيّة المعاصرة:

عرف التّأويل في الثّقافة الغربيّة المعاصرات تحوّلات كثيرة، أهمّها ذاك التحوّل الذي حدث مع شلاير ماخر ودلتاي، حين حرّرا الفعل التّأويليّ من إرغامات النّزعة الدّينيّة، لتتلو ذلك نظريّات كثيرة وتيارات متعدّدة تبيّن مدى حفاوة الفكر الغربيّ المعاصر بقضيّة التّأويل، وفيما يقبل من المحاضرات بيان لأهمّ هذه التّيارات وكشف عن طبيعة الممارسات التّأويليّة والأفكار التي أثّرت فيها. وفيما يلي بعض النماذج الغربيّة المعاصرة نتقصّى من خلالها تطوّر هذا المفهوم بعد المنعطف الذي أشرنا إليه سابقاً:

يقدّم **ليبنتز (leibnz)** تعريفاً فلسفيّاً عدّ منطلقاً لتعريفات كثيرة، حيث يرى أنّ التّأويل هو: «**البحث عن علل الأشياء للارتقاء منها إلى العلّة الأولى وهي الله**»، يتضمّن هذا التّعريف حقيقة مهمّة ألا وهي أن التّأويل في نظر ليبنتز هو البحث عن الحقيقة، لأنّ اللّه هو الحقيقة المطلقة، وعلى هذا الأساس يتحرّر التّأويل في نظره من المكتوب إلى الأشياء والظّواهر، وهذا التّحرّر هو الذي فتح الآفاق التّأويليّة التي لا تحصى.

ومن المحطّات المهمّة في مسار التّأويل الغربيّ نجد بول ريكور الذي يعدّ مثالاً للتّأويل المعتدل، ومن أهمّ ما ركّز عليه ريكور في تأويليته قضيّة اللّغة ورأى أنّ «**الهرمينوطيقا محكومة بمنطق اللّغة وطابعها الحجاجيّ**»[1]، يبدو ريكور في هذا التّعريف متقاطعاً مع الإمام للماورديّ من حيث التّركيز على اللّغة بوصفها اللّبنة الأساسيّة للممارسة التّأويليّة ومادتّهما الأولى، ومن

[1]– عمارة النّاصر، **الهرمينوطيقا والحجاج، مقاربة لتأويليّة ريكور**، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2014، ص19.

هنا فإنّه «**لا تأويل من غير لغة**»[1]، لقد تنبّه ريكور إلى إمكانات اللّغة الطّبيعيّة اللّامحدودة، وخصائصها المتنوّعة، ممّا جعله يبوّئ اللّغة منزلة رفيعة في منظومته التّأويليّة، خاصّة وأنّ تأويليّة ريكور تتّسم بالطّابع الحجاجي الذي تعدّ اللّغة أهمّ ركائزه.

3/ بلاغة التأويل:

هي توجّه تأويليّ عربيّ معاصر يهدف إلى إضفاء صفة البلاغة على فعل التأويل وذلك ببيان الإجراءات التي تجعله بليغاً فاهماً مفهماً متبيّناً مبيّناً، وفيما يقبل من أوراق المطبوعة بسط لأهم مبرراته وأسناده ومفاهيمه وإجراءاته ومجالات تطبيقه.

كان هذا عرضاً لبعض المفاهيم المتعلّقة بالبلاغة والتّأويل، وقد تعمّدنا البسط فيها لندرك مدى التنازع والتدافع التأويلي، الذي أفضى إلى الاختلاف الذي جرّ سلاسل آثاره على الفرد والجماعة خاصّة في الثّقافة الإسلاميّة، وقد ركّزنا على الجانب العربيّ في تحديدنا لمصطلح التّأويل لأنّ بلاغة التّأويل اتّجاه يهدف إلى تأسيس بلاغة عربيّة معاصرة تنطلق من التراث العربيّ الضّخم وتستأنس بما مناسب من المفاهيم الغربيّة.

[1]– المرجع السابق، ص21.

المحاضرة الثّانيّة:

قـواعد التّــأويل وحــدوده

ممّا يلاحظ عند النّظر في عمليّة القراءة في عصرنا الحاضر أنّ ثقافة المؤوِّل تفوق في كثير من الأحيان ثقافة المبدع، ومن هنا أصبحت سلطة المؤوِّل ميزة كلّ فعل تأويليّ، ممّا أدى إلى تضخّم المعنى، وذوبان المبدع في بركان المؤوِّلين.

1/ حدود التّأويل:

يمكن للنّاظر في الممارسات التّأويليّة أن يرتبّ حدود هاته الممارسة ترتيباً تصاعديّاً حسب درجة اقتحام النصّ كما يلي:[1]

أ- التّرجيع إلى الأصل:

يعدّ هذا المستوى محاولة للرّجوع إلى أوّلانيّة الفكرة التي أرد صاحب النّصّ قولها، وهذا الحدّ أبرز الحدود وأكثرها أهمّيّة من جهة الفعل والنتيجة، بل من جهة الجواز والحقّ.

ب- تجاوز المعنى الظّاهر:

يتّم في هذا الحدّ إضافة معنى محتمل إلى المعنى الأصليّ الذي يعبّر عنه النّصّ، وهذا الحدّ مرحلة دقيقة ممهّدة للغوص في تخوم النّص.

ت- الدّخول إلى المعنى الباطن:

ويعنى هذا الحدّ بالنّصّ الغامض الملغّز الذي يعرض نفسه علينا وكأنّه يطلب تأويله، فبعض النّصوص تمتاز ببنية مستفِزّة مثيرة، تجعل تأويها وكأنّه أمر محتّم مفروض، وقد نجد نصّاً يختلف تمام الاختلاف عن منزلة قائله أو توجّه أو سياقات الإنتاج المختلفة، ممّا يجعل تأويله أمراً لا مفرّ منه.

---

[1]- عزّت السّيّد أحمد، **حدود التّأويل**، ص ص522. 535.

ث- تفجير النّص بالدّلالات:

ويختّصّ بهذا الحدّ القراء البارعون، فقد يستطيعون أن يكتشفوا أشياء لم تخطر حتّى ببال المبدع، ومثاله المتنبّي الذي قال: اسالوا ابن جنّي فهو أعرف بشعري منّي، وهنا يكون التّأويل فعلاً خلّاقاً وإبداعاً جديداً، كما يشترط في النّص أن يكون قابلاً لهذا الإبداع، وذلك بغناه بلاغيّاً وأسلوبيّا.

ج- من التّأويل إلى التّقويل:

تعدّى التّأويل الحدود السّابقة فإنّه لم يعد تأويلاً، فعندما يفرض المؤوِّل على النّص معان لا يحتملها، فإنّ المؤوّل قد جنى على النّصّ، ومحمّله ما لا يحتمل، ومرّر من خلاله ما يريد هو لا ما يريده النصّ. وهذا كان سبباً لبروز ظاهرة إحراق الكتب خوفاً من سوء تأويلها، كما فعل التّوحيديّ لما حضرته الوفاة.

إذا كان خطاب التّأويل ممارسة تتجاوز اللّفظ وتتعدّى حدود الظّاهر فهذا لا يعني أن تنعتق هذه الممارسة من القيود وتتحرّر من القوانين. وهذا ما يؤدّي إلى خلق حالات من التوّتر التّأويليّ؛ حيث يتراوح الفعل التّأويليّ بين وضعيات ثلاث، إمّا أن يكون مكبّلا بالظّاهر، وإمّا يتحرّر وفق ما تتيحه معطيات النّصّ، وإمّا أن يتعالى على النّص ويلوي عنقه، ويقوّله ما لم يقل.

ولمّا كان هدف أعلام التّأويل على دراية بنتائج الإفراط في التّأويل فإنّهم سعوا إلى ترشيد خطاب التّأويل وتعديل جموحه وذلك بوضع قواعد وقيود لا يجاوزها المؤوِّل، ممّا كان أساساً حقيقيّاً فيما بعد لمشروع بلاغة التّأويل.

2/ قـواعد التّـأويل:

تهدف هذه القواعد التي وضعها المفسّرون والأصوليّون الأوائل إلى حصر مجال الحريّة التّأويليّة وفق ما تطيقه النّصوص، وحسب ما تتيحه إمكانيات اللّغة، وعلى هذا ينبغي لفعل التّأويل أن يخضع للقواعد التّالية:[1]

أ/ أن يكون المعنى ممّا يحتمله اللّفظ:

من مسلّمات اللّغة الطّبيعيّة تعدّد المعاني للفظ الواحد، وهذا ما تيح للكلام الانفتاح وتقبّل التّأويل، ولكن ينبغي على المؤوِّل أن يدور في فلك هذا التّعدّد ولا يجاوزه، وكلّ يصل إلى المعاني والدّلالات بقدر معرفته بهذا التّعدد.

ب/ وجود المثير التّأويلي:

تختلف النّصوص اختلافاً بيّنا في مقبوليّة التّأويل، إذ ليس كلّ نصّ قابل للتأويل، ولكن ينبغي توفّر النّص على مثير تأويليّ يجعل النّصّ لا يستقرّ على معنى واحد، وتختلف النّصوص حسب المثيرات، حتّى نجد بعض النّصوص تصل إلى درجة الإبهام الذي يستعصي على الأفهام[2].

ج/ السّيـاق:

وهو مجمل المعطيات المادّية والمعنويّة للمنتج، وكذا العناصر الخارجيّة عن النّص، الزّمان والمكان، والمؤشّرات اللّغويّة والثّقافيّة والخبريّة التي لها دور في توجيه الدّلالة وبلوغ المعنى، وبالإضافة إلى ذلك ينبغي التّركيز على سياقين مختلفين هما: سياق الإنتاج وسياق التّأويل وما يكون بينهما من فرق صارخ واختلاف عريض.

---

[1]– ينظر: محمد بازي، **التّأويلية العربيّة**، ص ص 58–60.

[2]– لمزيد من التّوسّع ينظر مقالنا (**الموجّه اللغوي والمثير التّأويليّ، مقاربة تأويليّة تقابليّة تقابليّة**)، مجلة المقّري، جامعة المسيلة، العدد5، ديسمبر2019، ص16 إلى26.

د/المقصـــد:

المقصد أمر بالغ الأهمّية؛ حيث إنّ المؤوِّل في النهاية يبحث عن مراد صاحب النّص، وهنا يقع الإشكال؛ إذ في كثير من الأحيان يكون الفعل التّأويليّ تكريساً لمقاصد المؤوِّل الذي يقبل على النّص بمسبقات توجّه ممارسته وتسيّرها، وقد أثبت لنا التّاريخ كثيراً من الأحداث عن تباين المقاصد بين الشّعراء والمتلقّين، ممّا أوقع تشويشاً وسوء فهم بين طرفي الإبداع.

تساهم هذه القواعد في ضبط عمليّة التّأويل من الجموح وتمنعها من التمرّد الذي يفضي إلى جعل الممارسة التّأويلية جناية في حقّ النّصوص، وهذا ما يخرجها عن إطارها الإبداعيّ الخلّاق، ولقد كانت هذه الضوابط التي وضعها الأوّلون سنداً مهمّا لبلاغة التأويل، استقت منه مادّتها وأخذت منه شرعيّتها.

المحاضرة الثّالثة:

التيّـــارات التّـــأويليّة

رأينا في المحاضرات السّابقة كيف تعدّدت الممارسات التّأويليّة نظراً لاختلاف الفروع المعرفيّة من جهة، ثمّ لخصوصيّة الخطابات من جهة أخرى، وهذا ما أفرز لنا مجالات تأويليّة، استطعنا تصنيفها وفق المج التي تحرّك فيها الفعل التّأويليّ، فوجدنا التّأويل الكلاميّ الفلسفيّ ووجدنا التّأويل الأصوليّ، ورأينا كذلك التّأويل الصّوفيّ الذي يمثّل المنهج التّأويليّ بامتياز.

وفي هذه المحاضرة نسلّط الضّوء على بعض التوجّهات التّأويليّة العربيّة المعاصرة، لأنّ الناظر في الحركة التأويليّة العربيّة المعاصرة يتبدّى له ذلك الوعي التأويليّ الكبير الذي ينطلق من التّراث الأوّل ويتأنس بالمعاصر من النظريّات، ممّا يجعلنا نجزم بظهور تأويليّة عربيّة واسعة تضمّ اتّجاهات بدأت تتمايز خطوطها وتتضّح معالمها، وسنكتفي بالتيارات التي بدا وفاؤها للأصل واضحاً، والتي تراعي خصوصيّة النص العربيّ، لأنّ هناك تيارات كثيرة ولكنّها متأثّرة شديد التأثّر بالمناهج الغربيّة، بل يمكن اعتبرها إعادة صياغة أو ترجمة لها.

1/ التّأويليّة الحجاجيّة:

تعود أصول هذا الاتّجاه إلى جهود علماء التّفسير وعلماء الكلام، إذ لبس المؤوّلون ثوب الحجاج، لأنّ طبيعة الثّقافة في القرون الأولى كانت حجاجيّة بامتياز؛ نظراً لكثرة الفرق والمذاهب، ممّا أنتج جدلاً تأويليّاً كبيراً، فالمؤوّل يغوص في النصّ (القرآن الكريم، أو الحديث النبوي) لاستخراج الحجّة والظّفر بالدليل، كما يسعى إلى تعضيد المعاني التي وصل إليها بالأدلّة والشواهد، لأنه يضع في حسبانه الندّ ويتصوّر الخصم، وهذا ما جعل علم التّفسير في كثير من الأحيان أداة من أدوات علم الكلام الذي مثّل حقيقة الصّراع الفكريّ في تلك القرون.

وهذا ما كان أساساً متيناً لتوجّه تأويليّ عربيّ لم تكتمل دعائمه بعد، وأبرز من فتح الأنظار على هذا التّوجّه الباحث التونسي (علي الشّبعان) من خلال كتابه (**الحجاج والحقيقة وأفاق**

التّأويل، بحث في الأشكال والاستراتيجيات)، حيث قارب خطابات تفسيريّة مختلفة المتكآت العقديّة، مفصّلاً في نزعتها الحجاجيّة الواضحة، مبيّناً آلياتها التّأويليّة التي هي في الآن نفسه أدوات حجاجيّة، وهذا البحث المهمّ يفتح آفاقاً واسعة جدّاً في مجال الحجاج والتّأويل، خاصّة مع النظريات المعاصرة التي تتعلّق باللّغة الطّبيعيّة واللّغة البرهانيّة، واللّتان تصحّحان كثيراً من المفاهيم المتعلّقة بالحجاج والتأويل.

إنّ المبدأ الأساسيّ الذي يقوم عليه هذا الاتّجاه هو العلاقة التّاليّة (كيف يكون التأويل خطاباً حجاجيّاً وكيف يكون الحجاج ممارسة تأويليّة)؛ ومن هنا فإنّ «**الحجاج آلية تصنع الكون التّأويليّ**»[1]، كما أنّ « **الحجاج إجراء سياقيّ محض ينفعل بالعوامل اللّفظية كما يتأثّر بالأشراط الاجتماعيّة والعقديّة والرّمزيّة والمخيالية،...**»[2] فإذا كان الحجاج آلية تأويليّة مستعملة في إثبات المعاني لتثبيت المواقف ودحض الخصوم، فإنّ الحجاج كذلك مظروف بالمخيال الذي يؤمن به المحاجج ويركن إليه، فهو إذن نتاج ممارسة تأويليّة وحاصل تفكير جماعيّ يحتكم إليه المحاجج/ المؤوّل.

2/ التأويليّة الثقافيّة:

هذا الاتّجاه من أهمّ الاتجاهات التّأويليّة العربيّة المعاصرة، كونه **يعيد النّظر في الأفكار والتّأويلات**، فيبعثها من جديد وينزّلها على السياقات الراهنة، ويطبّق عليها آليات القراءة المعاصرة، وتكمن أهمّيّة هذا التوجّه في أنّه يسعى إلى تصحيح الهفوات وسدّ المثالب في الممارسات الفكريّة السابقة، ومن ثمّ بناء أفكار جديدة تسهم في ترشيد الفكر وإصلاح المجتمع، ويمثّل هذا التوجّه علي حرب ومحمّد أركون، وإبراهيم السّكران[3]، وهذه الممارسة التّأويليّة تتّسم

---

[1]- علي الشّبعان، **الحجاج والحقيقة وآفاق التّأويل، بحث في الأشكال والاستراتيجيات**، ط1، 2010، 463.

[2]- المرجع نفسه، ص 468.

[3]- أبرز كتب علي حرب في هذا المجال: **(أوهام النخبة أو نقد المثقّف)**، **(تواطؤ الأضداد، الآلهة الجدد وخراب العالم)**، **أسئلة الحقيقة ورهانات الفكر)**، **(التّأويل والحقيقة قراءات تأويليّة في الثقافة العربيّة)**، **تأويليّة في (الاستلاب والارتداد، الإسلام بين روجيه غارودي ونصر حامد أبو زيد)**، أما أبرز كتب محمّد أركون فهي: **(تاريخيّة الفكر العربيّ الإسلاميّ)**،

بالخصوصيّة؛ إذ ليست متاحة لكلّ مؤوِّل، فهي تتطلّب معرفة واسعة بالتّراث أوّلاً، ثمّ الوعي بالاتجاهات الفكريّة والنظم الاجتماعيّة والسياسية والاقتصاديّة المعاصرة، وبالقدر الذي ساهم فيه هذا التيار في دفع حركة التّأويل ونقد الأفكار وتطوير العقل العربيّ، إلّا أنّه في كثير من الأحيان يظهر جرأة صارخة في مناقشة الثوابت ونبش المسلّمات.

3/ التّأويليّة البليغة:

من أبرز التيارات التأويليّة العربيّة المعاصرة، يهده إلى ترشيد فعل التّأويل، بالاستناد إلى التراث الإسلاميّ العريض، رائده محمّد بازي، ويقوم هذا التيار على نظريّتين كبيرتين هما: نظريّة التساند التّأويليّ، ونظريّة التأويل التقابلي، وهذا التيار هو موضوع محلّ الدراسة في هذا المقياس الموسوم ب(بلاغة التّأويل)، وسيأتي تفصيل كل ما يتعلّق بهذا التيار فيما يقبل من المحاضرات.

(العلمنة والدين)، (الفكر الأصولي واستحالة التّأصيل، نحو تاريخ آخر للفكر الإسلاميّ)، (نزعة الأنسة في الفكر العربيّ)، وأبرز كتب إبراهيم السكران، **(التّأويل الحداثي للتراث، التقنيات والاستمدادات)، (سلطة القافة الغالبة)، (مآلات الخطاب المدني)**.

المحاضرة الرّابعة:

بلاغة التّأويل والمؤوّل وانسجام التّأويل

رأينا في المحاضرات السّابقة كثيراً من المفاهيم التّأويليّة، انطلاقاً من تحديد مفهومه إلى مستوياته وحدوده وكذا تياراته المختلفة، وقد حاولنا الإحاطة ببعض الزّوايا الخاصّة، والتي جعلناها مبرّرات لوجود بلاغة التّأويل، خاصة ما تعلّق بالمستويات التي تبيّن تراوح التّأويل بين وضعيات ثلاث،: **التّأويل المفرّط** وهو الذي يستسلم لما يطفو فوق النّص، أمّا الثّانية فهي الوضعيّة التي يتجاوز فيها المؤوِّل النّص ويقوّله ما لم يقل، أمّا الوضعيّة الثالثة، فإنّها **وضعيّة الاعتدال**، ويكون التّأويل فيها متحرّكاً حسب الإمكانات التي يمنحها النّص لغةً وسياقاً ومحمولات فكريةً.

وهذا ما جعل الباحث **محمّد بازي** يقترح بديلاً معرفيّاً يرشّد الممارسة التّأويليّة، ويضبطها بما يجعلها مقبولة بيّنة، وهذا البديل المعرفيّ هو (بلاغة التّأويل)، ويستند في هذا الطّرح الجديد إلى التأويليّة العربيّة الثريّة، والتي تعدّ علامة بيّنة على خطر التّأويل وعظيم أثره.

1/ بلاغة التّأويل:

بلاغة التّأويل اتّجاه تأويليّ عربيّ معاصر يهدف إلى ترشيد الممارسة التّأويليّة وتخليصها من ظاهرتين تشوبانها هما: ظاهرة التّفريط وظاهرة الإفراط.

أ/ التأويل المُفْرِط:

الإفراط في الشيّء هو المبالغة مجاوزة الحدّ، كالإفراط في تناول غذاء معيّن، وعوقب الإفراط دائماً ضارّة ووخيمة، ولا شكّ في ذلك، فالشّيء إذا زاد عن حدّه انقلب إلى ضدّه، ومن هذا المنطلق فإنّ المُفْرِط من التّأويل هو: «**الذي يتجاوز الحدود المقبولة، ولا يحتكم إلى ضوابط، يراهن على التّخمة الدّلاليّة في عمليّة إشباع المعنى**»[1]، ولا يكمن ضرر هذا التّأويل

[1]– محمّد بازي، **التّأويليّة العربيّة**، ص 34.

في تقويل النّص ما لم يقل استجابة لمقاصد المؤوِّل، بل يتعدّى ذلك إلى خلق الفوضى والتّفرق على مستوى المجتمعات، وخير أدلّتنا ذلك التّدافع التّأويليّ الذي حدث في الثّقافة العربيّة، والذي جرّ الأمّة إلى التمزّق وسيلان الدّماء، هذا إذا تعلّق الأمر بالنّص المحور في ثقاف أمّا إذا عرّجنا على **الممارسات التأويليّة** للشّعر فإنّنا نتواجه مع كثير من الأمثلة التي تتكلّف التّأويل وتجاوز فيه الحدّ استجابة لموقف الشّارح من الشّاعر، والمثال الأبرز دون مرية هو المتنبّي الذي بالغ النّاس في تحميل شعره ما لا يحتمله خاصّة ما تعلّق بالكافوريات.

ب/ التّأويل المُفَرِّط:

التّفريط نقيض الإفراط، وهو الإخلال بالشّيء وعدم الإحاطة به، كما أنّه يعني عدم إدراك قيمته ومنزلة، واستناداً إلى هذا فالتّأويل المفرّط هو: «**الذي لا يبلغ الحدّ الأدنى من مواصفات التّأويل المقبول المستند على اللّغة والأدلّة النّصيّة والسياقية الكافية**»[1]، فهو إذن ممارسة تأويليّة قاصرة عن بلوغ مكامن النّص، كليلة عن إدراك باطنه، عاجزة عن تفجيره دلالياً.

ومن تضع بلاغة التأويل القوانين والضّوابط التي تجعله القراءة التّأويليّة قراءة إبداعيّة لا مفرطة ولا مفرّطة عواناً بين ذلك.

إنّ بلاغة التّأويل وصف للعمليّة التّأويليّة النّاجحة التي لا تكتفي بتفجير النّص بالدّلالات والمعاني فقط، بل تشدّد كذلك على ضرورة إيصال المعنى للمتلقّي في أوضح صورة وأبهى حلّة، لتظهر التّأويليّة البليغة ممتطيةً تعريف الجاحظ للبلاغة: «**إنّ مدار الأمر على البيان والتّبيين، وعلى الإفهام والتّفهيم ... والمُفهِم لك والمتفهّم عنك شريكان في الفضل، إلّا أنّ المُفهِم أفضل من المتفهّم**»[2]، يستخلص محمّد بازي من نظرة الجاحظ إلى البلاغة الإشارات التّالية:[3]

---

[1]- محمّد بازي، **التّأويليّة العربيّة**، ص34.

[2]- أبو عمر الجاحظ، **البيان والتبيّن**، ص34.

[3]- ينظر: محمّد بازي، **نظريّة التّأويل التّقابلي**، ص ص 178-179.

- البلاغة وضوح الدّلالة؛ – البلاغة الإيجاز؛
- البلاغة تخيّر اللّفظ وحسن الإفهام؛ – البلاغة إيصال القصد؛
- البلاغة أن يسابق المعنى لفظه واللّفظ معناه؛ – البلاغة إفهام الحاجة على مجاري كلام العرب.

يتبيّن من خلال هذه الإشارات أنّ الهدف الأساس من البلاغة هو إيصال المقصود، والعمل على إقناع المخاطَب به في أوضح صورة وأبهى حلّة، وهو ما ترومه التّأويليّة البليغة؛ فكلا البلاغتين تهدفان إلى إيصال المعنى والدّفاع عنه، غير أنّ المعنى في بلاغة الإنتاج ملك للمنتج، أمّا في بلاغة التّأويل فهو معنى محصَّل من النّصّ المؤوَّل؛ أي معنى مقيّد بما يتيحه النصّ، وليس للمؤوّلِ أن يبتكر من المعاني إلّا ما استقاه من ينابيع النّصّ، زادُه في ذلك الآليات التّأويليّة المشروعة لأنّ «العمل التّأويليّ عمل تشغله أبعاد المعنى الغائر، وفي الآن نفسه تأسره حدود التّأويل»[1]، ولو جمح المؤوِّل عن هاته الحدود لانتهى به الأمر إلى جدل تأويليّ وجُرم تقويليّ خاصّة إذا تعلّق الأمر بالمقدّس من النّصوص والخطابات.

يتبيّن ممّا سبق أنّ بلاغة التّأويل تقف على شقّين أساسيين هما:[2]

أ- **بلاغة الفهم:** ولا تتحقّق إلاّ باعتماد العلوم الآلية الموصلة إلى ذلك، كالموهبة والبحث اللغويّ والنّحوي والصّرفيّ والبلاغيّ بفنونه الثلاثة، وكذا امتلاك الذّائقة المتكوّنة من تراكم المقروء.

ب- **بلاغة الإقناع:** بعد تحقّق الفهم لدى المؤوِّل يسعى إلى تبريره وتعضيده بالأدلّة والحجج، ولعلّ النّاظر في التّراث التّأويليّ العربيّ والإسلاميّ يرى تلك الصّبغة الحجاجيّة الواضحة التي اصطبغ بها التّأويل، وفرضها هاجس السّيطرة على مسالك المعنى، وحمل المخاطبين على التّصديق بها والتّسليم لها، وإفحام المناوئين الحقيقيّين أو المزعومين.

---

[1]- علي الشّبعان، **الحجاج والحقيقة وآفاق التّأويل**، ص 473.

[2]- ينظر: محمّد بازي، **نظريّة التّأويل التّقابلي**، ص 66. و: علي الشّبعان، **الحجاج والحقيقة وآفاق التّأويل**، ص 482.

في هذه المحاضرة نتناول الشّق الأوّل وهو بلاغة الفهم، أمّا الشقّ الثاني فنتناوله بتوسّع في محاضرة **(من بلاغة الإنتاج إلى بلاغة التّأويل)**.

1-1 / مشروع بلاغة التّأويل:

عرفنا فيما تقدّم أنّ بلاغة التّأويل هي اتّجاه تأويليّ معاصر، يهدف إلى ترشيد فعل التّأويل مقدّماً البدائل الإجرائيّة والآليات النّاجعة التي تراهن على فهم أدقّ للنّصوص بمختلف أشكالها ومجالاتها. ويستند هذا المشروع التّأويليّ بالدّرجة الأولى إلى التّأويليّة العربيّة التي تعدّ نموذج فريداً في التّأويل، خاصة ما يتعلّق بالمفسّرين والمتصوّفة وعلماء الكلام، كما أنّ هذا المشروع يستأنس بالمفاهيم الغربيّة التي تدعو إلى تهدّئ الفعل التّأويليّ وتوجهه.

1-2/ مبرّرات وجود بلاغة التّأويل:

اطّلع رائد مشروع بلاغة التّأويل (محمّد بازي) على قدر واسع جدّا من الممارسات التّأويليّة العربيّة القديمة، ووقف على خطر التّأويل خاصّة لمّا يتعامل مع الخطاب القرآنيّ الذي يعدّ نصّاً محوراً في الثّقافة الإسلاميّة، فـ« **لقد أدّت المشاريع التّأويليّة غير المنضبطة وغير المحتكمة إلى قيود ومعايير في حالات كثيرة إلى حدوث وأهوال وسيلان دماء كثيرة، بسبب امتداد النّص القرآنيّ في حياة النّاس، وارتباطه بأحوالهم. ويظلّ السبب المباشر لذلك الاختلاف هو عدم امتلاك بلاغة تأويليّة والخضوع لسلطتها**»[1]. إنّ غياب الموجّه مع الشغف التّأويليّ الكبير وتوفّر المَلَكة التي تدعو إلى الجرأة ساهم كلّهُ في خلق جدل تأويليّ خطير أفضى إلى ما نرى من عواقبه الوخيمة إلى اليوم.

لقد نتج هذا الوضع إفراط تأويليّ بالِغٌ مثَّلَه المعتزلةُ والأشاعرة المتأخّرون والفلاسفة والمتصوّفة والشّيعة، ممّا أحدث شرخاً عقديّاً واسعاً وجدلاً فقهيّاً لا ينتهي. ممّا دفع ببعض أعلام التّأويل في تلك القرون إلى وضع قواعد صارمة تكبح جموع المواهب وتعدّل الحماسة وتعقلن

[1]- محمّد بازي، **التّأويليّة العربيّة**، ص 35.

الجرأة، ولعلّ الإمام الزّمخشريّ (538هـ) قد وضع الدّستور التّأويليّ الذي لا ينبغي للمؤوِّل أن يجانبه أو يجافيه.

يمكن اعتبار المنهج التّأويليّ لدى الزّمخشريّ نموذجاً تأويليّاً متكاملاً، وآية ذلك أنّه بيّن الآليات اللّازمة لخوض عُباب التّأويل: كعلوم اللّغة والبلاغة والنّحو والصّرف وعلوم القرآن والشّعر العربيّ والأخبار وغيرها[1].

ومن هنا شدّد الزمخشريّ على تأييد كل تأويل بهذه المؤيّدات، والتي في نظره تضفي على خطاب التّأويل المصداقيّة اللّازمة، خاصّة وأنّه من المفترض أنّ المؤوِّل لا يفتضّ المعاني لنفسه، بل هو واسطة بين كتاب اللّه سبحانه وبين من قصر به الفهم عن فهم آياته وإدراك أسراره.

وهناك صيحات كثيرة غير الزّمخشري، كلُّها تنادي بضرورة تقنين التّأويل لِما علموه وعايشوه من هَوْل الإفراط فيه، ومن هؤلاء على سبيل المثال: أبو حامد الغزاليّ، وابن تيمية وابن القيم والسيوطيّ، وخاصّة علماء الأصول.

ولم ينحصر الوضع في التّأويل الدّينيّ فقط وإنّما جرّ سلاسل آثاره على النّقد والأدب، فقد تنافس النّقاد في تقديم شاعر وتأخير غيره، ولعلّ الخصومة حول المتنبّي خير آية على ذلك. لقد انقسم النّاس في شأن المتنبّي واختلفوا فيه رفعاً من شأنه وحطاً، خاصّة قصائده الكافوريّة التي تكلّف كثير من النّقاد قلبها من المديح إلى الهجاء تعسّفاً وتعنّتاً وتطرّفاً، بل وتقوّلاً في كثير من الأحيان.[2]

إنّ استقراء محمّد بازي لهذا الوضع التأويليّ المتأزّم، واطّلاعه على الحلول التي قدّمها عقلاء تلك القرون جعله يستشفّ منهجاً تأويليّاً متكاملاً يدعو فيه إلى وجوب إضفاء صفة

[1]- ينظر: محمّد بازي، **صناعة الخطاب، الأنساق العميقة للتّأويليّة العربيّة**، دار كنوز المعرفة، عمّان – الأردن، ط1، 2015، ص ص16-17.

[2]- يعتبر كتاب **(رسالة في قلب كافوريات المتنبّي من المديح إلى الهجاء)** لحسام الدّين الرّومي مثالاً بيّناً على الإكراه التّأويليّ الذي مورِس على شعر المتنبّي.

البلاغة على الخطاب التّأويليّ ساحباً الإجراء على سائر الخطابات بالإضافة إلى الخطاب القرآنيّ.

1-3/ الأسناد المعرفيّة لبلاغة التّأويل:

تستمدّ بلاغة التّأويل شرعيّتها من التّراث العربيّ وتلقي بثقلها عليه بشكل كبير، حيث يرى محمّد بازي أنّ الخطاب التّأويليّ العربيّ يعدّ نموذجاً متكاملاً ودقيقاً، يكشف عن المواهب العربيّة الجبارة في فضّ الأبكار من المعاني، وعلى هذا فمادّة هذا المنهج مستسقاة من المجالات المعرفيّة التّالية:

- خطاب التّفسير على اختلاف توجّهاته ومناهجه.
- شروح الحديث النبويّ.
- شروح الدّواوين الشّعريّة والمتون العلميّة.
- الفلسفة الإسلاميّة.
- النّقد العربيّ.
- البلاغة العربيّة.
- علم الدّلالة.
- علم النّص.
- التّأويليّة الغربيّة (على سبيل الاستئناس والتطعيم)

إن هذا المتّكأ المعرفيّ الذي تستند إليه بلاغة التّأويل يجعلها مجالاً للالتقاء كثير من المعارف سواءً أكانت قديمة أو حديثة، ممّا يبني صرحا تأويليّاً ثريّاً يفتح آفاقاً مبهرةً تراهن على تكبير المعنى، كما تسعى إلى تعضيده وترشيده في الآن نفسه.

1-4/ نظريّات بلاغة التّأويل:

رغم حداثة هذا التوجّه إلّا أنّ صاحبه استطاع أن يوسّعه ليشمل نظريّتين مهمّتين في تحليل الخطاب وتأويل النّصوص هما: **نظريّة التساند التّأويليّ، ونظريّة التأويل التّقابلي**، وكلا

النّظريّتين تعدّان بديلاً معرفيّاً مهمّاً مجال التّأويل وتحليل الخطاب، وسنناول هاتين النّظريّتين بالتفصيل والتّمثيل في هذا المقياس.

2/ بلاغة المؤوِّل:

يمثّل التّأويل حواراً بين المؤوِّل والنّصّ، حيث يقبل على النّصّ معبّأً برصيد معرفيّ، كما يقبل عليه وهو يحمل في ذهنه مسبقات فكريّة ينتمي إليها ويدافع عنها، ولهذا كان التّعامل مع النّص من أصعب الأمور خاصّة وأنّ بلاغة التّأويل تحرص على تخليص المؤوِّل من المسبقات الفكريّة التي توجّهه، بل وتكبّاه في بعض الأحيان.

ومن هنا فإنّ المؤوِّل حتّى يكون بليغاً ينبغي عليه أن يعرف كيف يفاعل بين مقوّمات شخصيّته مع النصّ ومختلف بنياته، كما يجب عليه أن يكون ملمّا بالمصاحبات النّصيّة في عمليّة الفهم.[1] وهذا بالنّظر إلى موقعه الحسّاس بين النّصّ والمتلقّي، فهو لا يفهم لنفسه ولا يؤوِّل سدّاً لفاقة فهمه، وإنّما يفهم ليُفهم ويتبيّن ليبيّن، وهذا هو الوصف الدّقيق للبليغ كما حدّده الجاحظ، ـ وقد أشرنا إليه سابقاًـ.

إنّ المؤوِّل في نظر بلاغة التّأويل واسطةٌ بين النّصّ والمتلقّي، لذلك ينبغي عليه الاجتهاد حتى يبلّغ المتلقّي معاني النّصّ في قوالب واضحة تلائم فكره وتناسب فهمه، حتّى لا يحتاج التأويل إلى تأويل آخر ونصير إلى دوّامة تأويليّة ضحيتها المتلقّي والمعنى معاً، لهذا تضع بلاغة التّأويل كفايات لا بدّ من توفّرها في المؤوّل:[2]

- **<u>كفاية التّجميع</u>**: وهي قائمة على الأخذ والحفظ والجمع من علوم وظيفيّة في عمليّة الفهم وبناء المعنى، فيتّخذها آليات تدعم تأويله وتقوّيه.
- **<u>كفاية التّحقيق</u>**: وتمكّنه من إرجاع المادّة المحفوظة إلى أسانيدها، والأقوال إلى أصحابها، توثيقاً لآلياته التّأويليّة.

---

[1]– ينظر: محمّد بازي، **التّأويليّة العربيّة**، ص ص 46–47.

[2]–ينظر: المرجع نفسه، ص ص 44–45.

- **كفاية التّأويل:** وتتمثّل في القدرة على استبانة المعاني الخفيّة، بالانتباه إلى الإشارات الخفيّة، واشتغال القريحة، وفيها يتفاضل النّاس بحسب المواهب.
- **كفاية التّنسيق:** وتتمثّل في الصياغة النّهائيّة للمعاني المتوصّل إليها، في تماسك وتناسق تامّين، وهي الصّورة التي يخرج بها المعنى إلى المتلقّي في وضوح لا يحتاج إلى تأويل.

تبيّن هذه الكفايات مركز المؤوِّل المهمَّ في عمليّة الإبداع، فهو الذي يغوص في النّصّ ليستخرج معانيه ودلالاته الثّاوية وراء بلاغة المنتِج، ويقدّمها إلى المتلقّي الذي قصر به الرّكب عن بلوغ عالم النّص، ومن هنا يرابط المؤوّل في ثغور النّص واسطةً بينه وبين المتلقي فاهماً مفهماً، متبيّناً مبيناً.

3/ انسجام التّأويل:

تحرص بلاغة التّأويل على تنقية التّأويل من جميع الشوائب والعاهات التي تجعله غير مقبول، ومن أهمّ ما تركّز عليه قضيّة الانسجام، وتستعير هذا المفهوم من علم النّصّ الذي يَعُدُّه معياراً مهمّاً من معايير نصيّة النّصّ. وإذا كان الانسجام هو: «**الاستمرار الدّلاليّ في عالم النّصّ**»[1] والتّرابط المنطقيّ بين معانيه، فإنّ خطاب التّأويل ينبغي عليه أن ينكون منسجماً ومتضافراً داخليّاً وخارجيّاً.

أ/ الانسجام الداخليّ:

تتبني الممارسة التأويليّة على أركان هي: المؤوَّل، والمؤوِّل والتّأويل، ولا يتحقّق الانسجام الدّاخليّ إلّا أذا تناغمت هذه الأركان وتآلفت، فالمؤوِّل ينبغي عليه أن يقبل على النصّ قارئاً لا جانياً، حتى يكون تأويله سائراً في أفلاك النّصّ، وبهذا يصل إلى درره المخبوءة معانيه المكنوزة دون مساس به ولا افتراء عليه.

---

[1]– محمّد عفيفي، **نحو النّصّ، اتّجاه جديد في الدّرس النّحوي**، أحمد عفيفي، مكتبة زهراء الشّرق، القاهرة، ط1، 2001، ص90.

ومن هنا يكون تأويله منسجماً مع النّصّ متطابقا معه ومع مقاصده، هذا من جهة، ومن جهة أخرى ينبغي أن تنسجم بينية الخطاب التّأويليّ بحدّ ذاتها. وممّا يحقّق الانسجام الداخليّ قضيّة الحرص على التسلسل الأصليّ لمعاني النصّ المؤوَّل[1] على النحو الذي حدّد علماء النّص وفق قضيّة الانسجام، وكما اشترطته بلاغة التّأويل في الكفاءة الرّابعة من كفاءات التّأويل (كفاءة التنسيق)، فتداعي قرائن المقال وتناسلها يضمن خطاباً تأويليّاً متماسكاً مقبولاً، لا يحتاج إلى إعادة التّأويل.

ب/ الانسجام الخارجي (الانسجام داخل التّعدّد التّأويليّ):

ينبغي أن العمليّة التّأويليّة مكمّلة لسائر العمليات الممارسة على النّص لا تشذّ عنها ولا تعارضها، ممّا يضفي عليها الشّرعيّة والمصداقيّة ويَهَبُها القوّة، لأنّه «**يمكن لنتاج قراءات متباينة أن تخلق نوعاً من الانسجام، عندما يكمّل بعضها بعضاً، ويسدّ نقص المعنى**»[2]، ليتكوّن بذلك نسيج من التّأويلات التي تؤمن بالتعدّد وترضى بالتّعاون، ولهذا اشترطت بلاغة التّأويل على المؤوّل أن يطّلع على التّأويلات السّابقة حتّى يمتح منها مادّته ويرسم بها مساره، وذلك لسببين اثنين هما:[3]

- حصول التكامل بين قراءات مختلفة الأماكن والأزمنة، وما يتوفّر لكلّ قراءة من آليات حسب زمانها ومكانها.
- من النّصوص ما يظلّ يحمل من الإمكانيات الدّلالية أكثر ممّا لدى المؤوِّل الواحد من إمكانات.

إنّ النّصّ يسير وفق خطّ أفقيّ عبر الزّمن، محافظاً على بنيته، ولكنه يتعرّض للممارسات التّأويليّة عبر هذا الخطّ الزمني وما يحمله من مستجدّات، ولهذا تختلف التّأويلات باختلاف

---

[1]- محمّد بازي، **التّأويليّة العربيّة**، ص 47. و: ص90.

[2]- محمّد بازي، **نظريّة التّأويل التّقابلي**، ص51.

[3]- ينظر: المرجع نفسه، ص ن

الآليات التّأويليّة المستجدّة، ممّا يجعل الاطلاع على التّأويلات السّابقة مرحلة أوّلية مهمّة قبل الغوص في أعماق النّصّ. ومن هنا تضع بلاغة التّأويل شروطاً لكلّ أطراف العمليّة التّأويليّة من تأويل ومؤوِّل ومؤوَّلٍ، حرصاً على تحقيق التّأويل الكامل والمتكامل.

المحاضرة الخامسة:

المعنى وبلاغة التّأويل

تسعى كلّ نظريات القراءة والتّأويل المعاصرة إلى بلوغ أكبر قدر من المعاني التي يحملها النّصّ، إلّا أنّ هناك إشكالات كثيرة أصبحت تطرح في قضيّة المعنى، خاصّة مع كثرة آليات القراءة، التي أصبحت تنبئ عن وقوع معضلات على مستوى المعنى، وأبرز هذه المعضلات تلك التّخمة المعنويّة التي تجعل المعنى أمراً مبتذلاً وبلا قيمة.

لقد أدركت بلاغة التّأويل هذا الخطر المعنويّ المعاصر، ولذلك قدّمت الحلول اللّازمة لفكّ هذه المعضلات بدءًا من المؤوِّل ثمّ ما قبل النّص ثمّ النّصّ وصولاً إلى الممارسة التّأويليّة.

1/ الوجود والمعنى؛ أيّهما أسبق؟

تنطلق بلاغة التّأويل في هذا الإشكال من الفلسفة الغربيّة وتصدّقها، وبالضّبط من فلسفة بول ريكور؛ حيث يرى ريكور أنّ «**التّأويل يسبق التلفّظ؛ هناك الوجود أوّلاً، أي كينونة المؤوّل، ثمّ فهمهم وتأويله للعالم والوجود، ثمّ التّعبير عنه ذلك، المعنى يوجد قبل التّأويل**»[1]، أيّ أنّ المادّة الأوّليّة للمعنى هي الوجود، وهذا أيضا ما ذهب إليه أرسطو، ولعلّ هذا ما يؤكّد قضيّة أنّ اللّغة هي النصّ هو المكتوب من الوجود، فالنّص هو نقل للوجود من هيئة إلى هيئة، وعلى هذا فالكتابة ما هي إلّا تأويل للوجود، ليغدو التّأويل تأويلاً لتأويل.

[1]– محمّد بازي، **نظريّة التّأويل التّقابلي**، ص 79.

2/ مسارات بناء المعنى:

المؤوِّل في رحلة دائمة وشاقة للبحث عن المعنى، وهي الغاية الأسمى التي يبتغيها كلّ مؤوِّل، ولعمليّة البحث عن المعنى ثلاثة مســـارات أساسيّة لا يمكن لأي فعل تأويليّ أن يتجاوزها، كونها تلخّص حوار المؤوِّل مع النّص وصراعه الدّائم معه، وهذه المسارات هي:[1]

1ـ أ/ الافتراض:

يمتلك المؤوِّل مسبقات معرفيّة وإيديولوجيّة تمكّنه من تكوين فرضيات كثيرة حول النّصّ المراد تأويله قبل الشّروع في تأويله، وعمليّة التّأويل تصدّق هذه الفرضيات أو تنفيها، وعلى المؤوّلِ أن يعدل عن فرضياتها في حالة تنافيها مع معطيات النّص ولا يبقى محكوماً بتلك الفرضيات باحثاً عمّا يصدّقها، ممّا يجعل التّأويل عملاً ذاتيّاً، وليس فعلاً قرائيّاً خّلاقاً.

1ـ ب/ عمليّة الفهم:

هي الممارسة الفعليّة للتّأويل والغوص في أعماق النّص باستعمال آليات كثيرة، وفي هذه المرحلة يُمتحن المؤوِّل في ذاتيته، وذلك من خلال توافق هذا المسار مع المسار الذي قبله، ونقصد بذلك الفرضيات التي تكوّنت قبل الفهم.

1ـ ج/ ما بعد الفهم:

ينتهي التّأويل بمجموعة بنيات دلالية، منها ما يعتبر أساساً من وجهة نظر المؤوِّل، ومنها ما هو ثانويّ، فعلى المؤوّل أن يختار من ذلك ما ينفع مسار التّأويل، ثمّ يقدّم كل ذلك في قالب منسجم حتى تتحقّق مقبوليته.

قد يكون هذا التّأويل منطلقاً لرحلات تأويليّة أخرى ومفتاحاً لآفاق قرائيّة لا تنتهي، وقد قدّمنا سابقاً أنّ النصّ سائرٌ عبر الزّمن خاضعٌ للقراءات المتتابعة والمختلفة باختلاف الآليات والسياقات التي يمنحها الزمن.

---

[1]– محمد بازي، **التّأويليّة العربيّة**، ص ص 141–142.

مستويات بناء المعنى:

سعت بلاغة التّأويل إلى تحديد مستويات التّأويل بدقّة، هذه المستويات هي تفصيل دقيق للحدود الخمسة التي ذكرناها في محاضرة (قواعد التّأويل وحدوده) ، وأوصل هذا التّفصيل مستويات التّأويل إلى تسع مستويات، وهذا التّفصيل دور مهمّ في التّميّز بين التّأويل المقبول وغير المقبول، وتصنّف هذه المستويات التّسعة إلى ثلاث وضعيات يتموضع فيها المؤوِّل مع النّص:

1/ وضعيّة التّداني الدّلالي (سُلطة القصد الإنتاجيّ):

في هذه الوضعيّة يبقى المؤوِّل في ظلال المعاني النّصيّة، ونجد في هذه الوضعيّة ثلاث مستويات تبيّن مدى ارتباط المؤوّل بالنّص وانجذابه إليه:[1]

أ/ **تحرير المعنى:** وهو مفهوم استعمله الشّراح القدامى، ويستعمل عندما تكون الدّلالة الإجمالية غير موضِّحة للمعنى المنشود، فتبيّن المعنى دون التّقيّد بألفاظ البيت المشروح.

ب/ تكرير المعنى: وهو إعادة صياغة المعنى في صياغة لغويّة جديدة، فالمؤوِّل في هذه الحالة يلتزم بما قيل ويعمل على ترديده دون زيادة أو نقصان.

ج/ تقرير المعنى: يقرّر المؤوِّل ما معطىً ومسجّلاً في النّص ويصدّقه.

يتّضح في هذه المستويات الثّلاثة اكتفاء طالب المعنى بما هو معطىً في النّص طافيّاً عليه، ويمكن تسمية هذه المستويات بمسمّى دقيق هو (القناعة التّأويليّة) أي الاكتفاء بالقليل من المعنى وعدم اجهاد الفهم في بلوغ المضمرات أو فكّ الشّفرات.

[1]- ينظر: محمّد بازي، **التّأويليّة العربيّة**، ص ص 150-151.

2/ وضعيّة البَيْنَ بَيْن:

في هذه الوضعيّة لا ينأى المؤوِّل كلّية هن النّص ولا يستسلم له كلّيّة، وإنّما يبقى في وضع قرائيّ يسمح له بالقليل من الحريّة التي تظلّ في حدود الاعتبارات السّابقة، موازية للنّصّ في عملها ومحصّلات بنائها للمعنى، تضمّ هذه الوضعيّة كذلك ثلاث مستويات دقيقة، هي:[1]

2ـ أ/ تطوير المعنى: هو إيصال المعنى إلى القارئ مثقلاً بالمعاني الإضافيّة المرتبطة به والمفرّعة عنه.

2ـ ب/ تبرير المعنى: لا يكتفي المؤوِّل في هذا المستوى بالمقصود، وإنّما يقحم عناصر استدلاليّة على إمكانية المعنى وجدّته، فهو بمثابة الدّفاع عن المعنى.

2ـ ج/ تنوير المعنى: وهو إخراج المعنى من إبهامه وإعتامه في أوضح صورة، فهو إذن تسليط مزيد من الضّوء على المعنى النصّي لغرابته أو استعصاء فهمه أو دقّته.

تتجلّى أهميّة هذه المستويات الثلاثة في فضل المؤوِّل على النّصّ، إذ يأخذ على نفسه الدّفاع عن المعنى الذي أراده صاحب النّصّ، أو إيضاحَه أو تعضيدَه بالتّأويلات السّابقة أو النّصوص الموازية تحقيقاً لانسجامه.

3/ التّقاصي الدّلالي (سُلطة القصد التّأويليّ):

يبتعد المؤوِّل عن النصّ ويخلق مسافة معه ويتعالى عليه، ويقترب أكثر من الذّات المؤوِّلة ورهاناتها، فيفرض ما يريد من المعاني، إلى درجة الإساءة إلى النّص، وفي هذه الوضعيّة ثلاث مستويات أيضاً:[2]

3ـ أ/ تمرير المعنى: وهو اتّخاذ النّصوص عتبات يمرّر من خلالها ما يريد إلى الآخرين بدعوى أنّ النصّ يدعمه فيها، وخير دليل على هذا تأويلات بعض الصوفيّة والشيعة والمعتزلة وبعض

---

[1]– محمّد بازي، **التّأويليّة العربيّة**، ص151.

[2]– المرجع نفسه، ص 152.

شرّاح الدّواوين الشعريّة قديما، أمّا في عصرنا فإنّ هذا المستوى يكاد يسيطر على فعل التّأويل سيما وأنّ العالَم من آليات القراءة ما ينوء بحمله النّص.

3ـ ب/ تحوير المعنى: وهو إخراجه عن صورته الأصليّة وتغييره وقلبه بما يتماشى مع أهداف خاصّة، وقد يُلجأ إليه للفكاك من مآزق التّأويل، حين يفاجأ طالب المعنى بما يخالف افتراضاته أو يتعارض مع مسبقاته الفكريّة ومتكآته الأيديولوجيّة، وقد يمتطي المؤوِّل هذا المستوى عند عجزه عن فكّ لغز النّصّ.

3ـ ج/ تثوير المعنى: هو تجلٍّ تأويليّ يعلي من سلطة الذّات المؤوِّلة ويترك لها متّسعاً لتفجير موهبتها في التّأويل، فلا يصبح المعنى واحداً، وإنّما متعدّداً متناسلاً غير منتهٍ، وهذا ما يؤدّي إلى التّخمة المعنويّة وذوبان النّص في عظمة الذّات المؤوِّلة.

يمكننا أنّ نصف وبدقّة هذه المستويات الثلاثة الأخيرة التي تنفي البراءة عن فعل التأويل بوصف السّفسطة التّأويليّة، أو مكائد التّأويل، وهذا ما تجاهد بلاغة التّأويل تخليص التّأويل منه. ويمكن تلخيص المستويات السّابقة في الخطاطة التّالية:

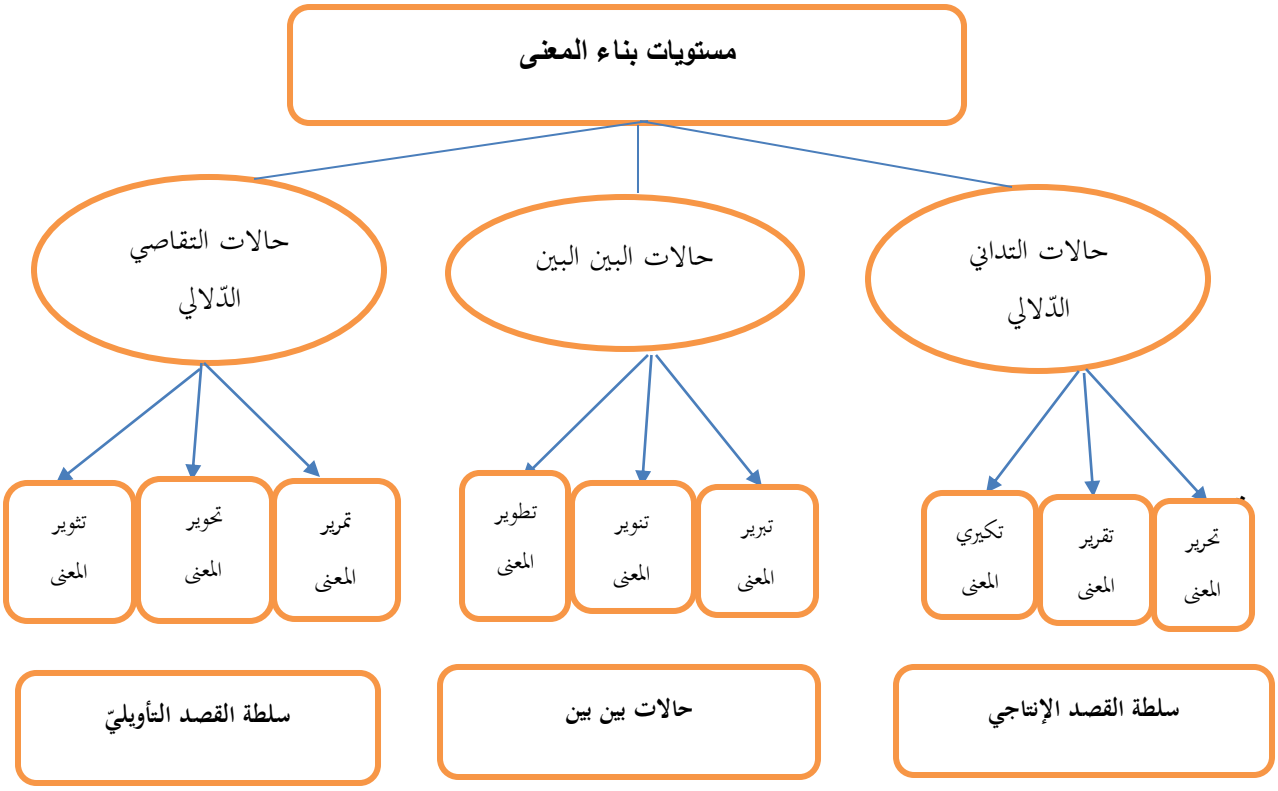

وبعد هذا التّفصيل في مستويات المعنى والوضعيات التي يتّخذها المؤوِّل مع النّص، يتّضح أنّ الفعل التّأويليّ الخلّاق الذي يتموضع موضعاً وسطاً بين سلطة القصد الإنتاجي وسلطة القصد التّأويليّ، فلا يقنع بالمعنى المشاع، ولا يكلّف النصّ بما ينوء بحمله.

لقد قامت بلاغة التأويل بإحصاء مستويات المعنى المختلفة وتصنيفها، ومن ثمّ تحديد المجال الذي يتحرّك في المؤوّل البليغ، فهو يسعى إلى خدمة النّص لا إلى هدمه، فيوضّح مقصده وينوّر ظلامه ويزيل إبهامه، ومع ذلك يضيف إليه المعاني التي وصل إليها؛ وهي تلك المنبثقة عن الغنى الدّلالي والأسلوبيّ للنصّ، وقد يصل إلى المعاني التي غابت عن صاحب النّصّ نفسه، ولكن في إبداع تأويليّ لا يمسّ بقيمة النّصّ أو صاحبه، وقد قال المتنبّي قديماً: اسألوا المتنبّي فهة أعرف بشعري منّي.

المحاضرة السّادسة:

من بلاغة النّصّ إلى التّأويليّة البليغة.

إذا كان تسخير مفاهيم البلاغة كأدوات شاحنة للخطاب من طرف المنتج للنصوص والخطابات أمراً يكاد ينعقد الاجماع عليه، فإنّ البلاغة المعاصرة التي ألقت بظلالها على غالب فروع المعرفة تربط الصّلة الوثيقة بالتأويل، تعتبر المداخل البلاغية من أهم آليات التّأويل التي تندرج ضمن ما يسمّى بالدّوائر القرائيّة الصّغرى، فالاحتكام إلى البلاغة في عمليّة التّأويل أمر ضروريّ، نظراً لغناها الدّلالي. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإنّ المؤوّل لا يكون بليغا إلّا إذا توفّرت فيه كفاءات أهمّها الفهمُ بالآلة المناسبة والإفهامُ بتنسيق خطابه على الوجه الذي يجعله وسيطا بليغا بين النّص والقارئ، ثمّ تقيّد بمستويات لا يكون فيها مؤوّلا مُفَرِّطا ولا مفْرِطا بل معتدلا، عندئذ يمكن وصفه بالمؤوّل البليغ، ومن هنا تتحقّق العلاقة التالية:

(البلاغة بوصفها ممارسة تأويليّة والتّأويل بوصفه خطاباً بلاغيّاً)

1- بلاغة النّص (بلاغة الإنتاج):

اتّضحت أهمّيّة البلاغة في تقوية الخطابات الإنسانيّة، سواءً أكانت البلاغة مقصودةً مستغلّة في العمليّة، أم كانت عرضيّة تزيد في الكثافة الدّلاليّة والتّأثيريّة للخطاب، ولقد اشتهرت أساليب بلاغيّة عديدة تحوي طاقات تأويليّة معتبرة، إلى درجة أنّها لا تفهم إلّا بتوفّر الاستعداد المعرفيّ اللّازم.

1 ـ حسن التّعليل:

يعدّ التّعليل بمختلف ألفاظه وتراكيبه من الأدوات اللّغوية التي يستعملها المرسل لتركيب خطابه الحجاجي، وبناء حججه فيه، ففي النّحو نجد المفعول لأجله مفرداً أو جملة، وكلمة

السّبب، ولأنّ، إذ لا يستعمل المرسل هذا التّراكيب إلاّ تبريراً أو تعليلاً لفعله ورأيه، بناء على سؤال يفترض تلقّيه أو تلقّاه فعلاً.[1]

أمّا في البلاغة فهو من أهّم أساليب انفتاح الخطاب؛ وذلك لأنّ إظهار العلّة اللّامتوقّعة هو عين الغرابة بل قد «**تأتي العلّة بمعنى الحجّة، وفي هذا اختزال لقوّة العلاقة بينهما؛ خاصّة إذا جاءت العلّة لبيان الأسباب المقنعة بالمعاني المطروحة**»[2]، ويستمدّ التعليل طابعه التّأويليّ من أنّ المرسِل يسعى على حثّ المخاطب على النشاط والتّفكير، كما يستمدّ قوّته الدّلالية من كونه يربط بين النّتائج وأسبابها[3]، ويعرّفه الجرجاني بقوله «**وهو أن يكون للمعنى من المعاني أو الفعل من الأفعال علّة مشهورة من طريق العادات والطّباع، ثمّ يجيء الشّاعر فيمنع أن تكون لتلك المعروفة، ويضع له علّة أخرى.**»[4] فالشّاعر «**يدّعي في الصّفة الثّابتة للشّيء أنّه إنّما كان لعلّة يضعها ويختلقها، إمّا لأمر يرجع إلى تعظيم الممدوح، أو تعظيم أمر من الأمور.**»[5] فهو يخترع العلّة والمعلول والجامع بينهما في غرابة مع دقّة وتناسب تامّين، لذلك عدّ من الأساليب البلاغيّة التي تعتمد القدرة على الخلق والإبداع، فالشّاعر يروم إثبات الحقيقة بالخيال، ومكمن السّرّ في إبداعيّة هذا الأسلوب أنّه «**يحوي اختلاف العلّة وادّعاءها والتلطّف بها حتّى تكون مناسبة تلائم الوصف، وهو أمر يحتاج إلى رهافة الحسن ودقّة النّظر، ولا**

---

[1]– عبد الهادي بن ظافر الشّهري، **استراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية**، دار الكتب الجديد المتّحدة، ليبيا، ط1، 2004، ص478، بتصرّف.

[2]– ناصر السّعيدي، **الاحتجاج العقلي والمعنى البلاغي (دراسة وصفيّة)**، متطلّب تكميلي لنيل الدّكتوراه في تخصّص البلاغة والنّقد، إشراف: محمّد إبراهيم شادي، جامعة أمّ القرى، المملكة العربيّة السّعودية، 1426، ص 105.

[3]– ينظر: عبد القاهر الجرجاني، **أسرار البلاغة**، تحقيق: محمود شاكر، دار المدني جدّة، ط1، 1991، ص ص 277–278.

[4]– ينظر: عبد الهادي بن ظافر الشّهري، **استراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية**، ص481.

[5]– الجرجاني، **أسرار البلاغة**، ص 296.

يدركه إلاّ من له تصرّف في دقائق المعاني.»[1] وهذا الأسلوب كثير في الشّعر العربيّ، من ذلك:[2]

سَفَكَ الدِّمَاءَ بِجُودِهِ لَا بَأْسِهِ كَرَماً لِأَنَّ الطَّيْرَ بَعْضُ عِيَـالِهِ

إنّ العلّة التي أتى بها الشّاعر تخالف ما كان ينتظره المتلقّي، فالذي يقتل الأعداء إنّما يردّ كيدهم أو يريد أرضهم وديارهم وأموالهم، وهذه الحجّة التي تؤكّد شجاعة الممدوح يحتجّ بها المتنبّي كذلك لجود الممدوح الذي وصل إلى الطّيور الكاسرة التي تتغذّى على أجساد العباد، والممدوح في نظره لولا جوع الطّير ودخولها تحت رحمته ورجاءه لما سفك دماً وما قتل نفساً، فانظر إلى وضاعة الأعداء في هذا التّعبير؛ دماء الأعداء أرخص من أمل الطّيور وأهون من سدّ رمقها. وممّا يشبهه:[3]

مَا بِهِ قَتْلُ أَعَادِيهِ وَلَكِـــنْ يَتَّقِي إِخْلَافَ مَا تَرْجُو الذِّئَابُ

2 ـ المذهب الكلامي:

المذهب الكلاميّ هو انتحاء طريقة المتكلّمين في إثبات المواقف والاحتجاج للآراء، وقد اشترط ابن الأثير الثّقافة الموسوعيّة، فصناعة هذا الأسلوب موضوعة للخوض في كلّ معنى، وصاحب هذه الصّناعة يجب أن يتعلّق بكلّ علم وكلّ صناعة،[4] فهو أسلوب يوظّفه المتكلّم لإقحام خصمه في سيل من الدّلالات، والهدف من هذا الأسلوب هو إقناع المخاطب بالحجّة والبرهان، وهو من الأساليب الاستدلاليّة التأويليّة التي وظّفت في الدّرس البلاغيّ العربيّ القديم،

---

[1]– محمّد الواسطي، **أساليب الحجاج في البلاغة العربيّة**، ضمن كتاب: **(الحجاج مفهومه ومجالاته)**، ج3، ص 147.

[2]– عبد الرّحمن البرقوقي، **شرح ديوان المتنبّي**، مكتبة نزار الباز، المملكة العربيّة السّعوديّة، ط/، 2002، ج2، ص 909.

[3]– البرقوقي، ج1، ص 201.

[4]– ينظر: ابن الأثير، **المثل السّائر**، تحقيق أحمد الحوفي وبدوي طبانة، مكتبة النّهضة، مصر، ط/، 1959، ج1، ص 48.

والذي تمتزج فيه أساليب أخرى، بما يمنحه القوّة في الإبلاغ.[1] ويستمدّ المذهب الكلامي نزعته التأويليّة من أصله، وهو علم الكلام الذي وضع للدّفاع عن أصول الدّين بالبراهين والأدلّة المستقاة من كتاب الله عن طريق مواهب التأويل المتفرّدة، لذا تأثّر به كثير من البلغاء والشّعراء خاصّة من تؤهّله ثقافته لانتهاج هذا النّهج وإتقان هذه الصّنعة، من هنا تظهر قيمة المذهب الكلامي في جمع كثير المسائل في الشّعر، وهذا لكون الشّاعر يجمع من المعاني أقواها ومن البراهين أشدّها حتّى لا يجد المتلقّي سبيلاً للنّجاة من حتميّة التأويل.

3 ـ التّشبيه:

يحتلّ التّشبيه مكانة عالية ودرجة رفيعة بين فنون البلاغة، لما يطويه من قوّة الجمع بين المتناقضات والتّقريب بين المتباعدات، ممّا يكسب القول القوّة والثّراء الدلالي، فالعلاقات غير الظّاهرة تبرز دور المتلقّي غاية البروز، فعليه أن يسعى إلى إدراك هذه العلاقات عن طريق إعمال عقله وتحريك فكره، فإذا ذكر السّبب سعى إلى إيجاد المسبّب، وإذا غابت العلّة وجدها عن طريق التفكّر في المعلول، وهكذا في التّماثل وشبهه وكذا في التّضاد، فعلى المتلقّي أن يملأ فراغ الخطاب عن طريق إيجاد وجه التّماثل أو شبهه بين الشّيئين أو الأشياء، أمّا في الجمع بين الأضداد فهو أيسر الأمور على المتلقّي لأنّ «**الضّد أقرب خطوراً بالبال مع الضّد**».[2]

تتكئ الظّواهر البلاغيّة على المتلقّي بدرجة كبيرة حتّى تتحقّق سلامة العلاقات بين وحدات الخطاب، وكذا الدّلالة العامّة التي تنطوي تحت هذه العلاقات التي ينشئها المرسل ويحقّقها المتلقّي عن طريق إقامة العلاقة بين المتناقضين وإيجاد الجامع بين المتباعدين، ولا يدرك هذا إلاّ بتحريك آلة الفهم التي تتدخّل فيها الثّقافة المشتركة بين المرسل والمتلقّي لينفكّ لغز الخروج عن العالم الواقعي إلى عالم الخيال. وقد سجّل الشّعر العربيّ كثيراً من العلاقات الفريدة التي

---

[1]- ينظر: رضوان الرّقبي، **الاستدلال الحجاجي التّداولي وآليات اشتغاله**، مجلّة عالم الفكر، العدد 2، المجلّد 40، أكتوبر- ديسمبر 2011، ص ص 76-77.

[2]- محمّد بن علي السّكّاكي، **مفتاح العلوم**، دار الكتب العلميّة، بيروت، دت، ص 110.

أقامها الشّعراء بصفة خاصّة في جمعهم بين المادّي والمعنويّ والحيّ والجماد والعاقل وغير العاقل، فيترك الشّاعر للمتلقّي كيفيّة الرّبط بين كلّ تلك المتباعدات، فيصبح غريباً في عالم هذا الخطاب، ولا يزيل هذه الغربة إلاّ عن طريق فكّ رموز هذه العلاقات الغريبة، ليكوّن نصّاً جديداً له فيه نصيب من الجهد الفكريّ والعناء العقليّ ليعتبر في النّهاية شريكاً في إنتاج الخطاب.

التّشبيه الضّمني:

هو تشبيه يبنى في صورة غير معهودة، فطرفا التّشبيه لا يفهمان إلاّ من ضمن القول وسياق الكلام، وتعتبر صفة المشبّه به كالدّليل على الدّعوى التي يحتجّ بها وهي إثبات صفة ما للمشبّه[1]. وإذا سألنا عن دوره التّأويليّ فهو يملك من القوّة ما جعل علماء التأويل يعتبرونه أسلوباً فريداً في استفزاز العقل، فيتشارك فيه المرسل والمتلقّي، وممّا جعله يختلف عن تشبيه التّمثيل والتّشبيه المركّب هو أنّه تمثيلٌ حسّيٌّ مركّب يذكر للاحتجاج والاستدلال على صحّة مقولة المشبّه من أجل نفي إنكار المنكر لها وإقناعه.[2] ويسمّيه أبو هلال العسكري الاستشهاد والاحتجاج، ويعرّفه بقوله: «**هو أن تأتي بمعنى ثمّ تؤكّده بمعنى آخر، يجري مجر الاستشهاد على الأوّل والحجّة على صحّته.**»[3] فهو إذن ممارسة استدلالية يسعى فيها المتكلّم إلى الانتقال من حكم إلى آخر، معتمداً على الحريّة في اختيار ما يحتاجه من الألفاظ والتّراكيب والصّور، متجاوزاً في ذلك كلّ الحدود والعلاقات التي تراعي متغيّرات الوضع اللّساني، ومتغيّرات المحيط المعرفي الذي يكتنف المتخاطبين، ومن أبرز ذلك الصّور والاستعارات، التي يبنى فيها القياس

---

[1]- ينظر: محمّد الواسطي، **أساليب الحجاج في البلاغة العربية**، ضمن كتاب **(الحجاج مفهومه ومجالاته) ج3**، ص148-149.

[2]- ينظر: المرجع نفسه، ص 150.

[3]- أبو هلال العسكري، **الصّناعتين**، تحقيق: علي البجاوي ومحمّد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصريّة، بيروت، 1986. ص 416.

من المعروف إلى اللّامعروف[1]. إذن فالقياس التّداولي يربط بين موضوعين (مقيس ومقيس عليه) أو ظاهرتين أو فكرتين هما في الحقيقة ينتميان إلى مجالين في التّداول متباعدين، ليتم الرّبط عن طريق علاقة القياس التي تتّصف بالمغايرة لا المجانسة، ممّا يجعلها تحافظ على وجوه الاختلاف بين الطّرفين في العمليّة ذاتها، وفي الوقت نفسه تسعى إلى إذابة الفروق وتثبيت وجوه التّشابه والتّقارب بينهما[2]. ولا تكمن قيمة القياس التّداولي في حمل الخبر لمن لا يعلمه، وإنّما في محاولة التّأثير في سلوك المخاطب عن طريق القيمة الفكرية التي يحملها والتي تؤدّي به إلى الاقتناع بمضمون القول عملاً به أو كفّاً عنه.[3] ويقوم هذا الاستدلال في الشّعر العربي على علاقة التشابه والتّماثل بمختلف أشكاله، ولنا في ذلك أمثلة تكتفي ببيت المتنبّي:[4]

فَإِنْ تَفُقِ الْأَنَامَ وَأَنْتَ مِنْهُمْ فَإِنَّ الْمِسْكَ بَعْضُ دَمِ الْغَـزَالِ

لقد استدل المتنبي على احتمال وجود شخص شريف بقامة سيف الدولة وسط الأنام السفلة والمنحطين واعتبر ذلك أمرا طبيعيا، ليس بالاقتصار على إثبات هذه الواقعة في حد ذاتها. بل بالربط بينها وبين حدث آخر غير متعايش معه داخل المكان وغير متعاقب معه داخل الزمن، بل بالربط بين حدثين متباينين ولكنهما متشابهان. إن كون سيف الدولة رفيع الطبيعة، لا ينبغي أن يدهشنا، إذ إن هناك ما يناظر هذا في الطبيعة. إن المسك الرفيع أيضا يوجد في مادة خسيسة وكريهة وهي دم الغزال. ويشترط في تحقيق هذه الاستدلال غايتَه أن يكون المخاطب ذا معرفة بطرفي العلاقة التّمثيليّة

---

[1]- ينظر: طه عبد الرّحمن، **تجديد المنهج في تقويم الـتّراث**، المركز الثّقافي العربي، الدّار البيضاء–المغرب، ط1، 1994، ص 185.

[2]- ينظر: طه عبد الرّحمن، **في أصول الحوار وتجديد علم الكلام**، المركز الثّقافي العربي، الدّار البيضاء–المغرب، ط2، 2000ص ص 107-108.

[3]- ينظر: المرجع السّابق، ص111.

[4]- البرقوقي، ج2، ص 737.

4 ـ تحصيل الحاصل:

لم يسلم هذا الأسلوب من التّنقيص، ورمي مستعمله بعدم الفائدة، والحقيقة أن أيّ تركيب في خطاب ما لا يخلو من فائدة، فإذا كان تحصيل الحاصل «**مجرّد إعادة قول، وآفة منطقيّة يتمّ عرض مقولة ما كحجّة ثمّ تكرّر بمفردات مختلفة لنصل في الأخير إلى ما قلناه سابقاً**»[1]، فإنّنا يمكن أن نعترض على هذا القول بأنّ القدرة على صوغ معنىً واحدة بصيغ مختلفة وتراكيب متنوّعة مدعاة للتأويل، وأبرز مثال على هذا بيت المتنبّي الذي قاله معاتباً سيف الدّولة:[2]

يَا أَعْدَلَ النَّاسِ إلاَّ فِي مُعَامَلَتِي فِيكَ الْخِصَامُ وَأَنْتَ الْخَصْمُ وَالْحَكَمُ

إنّ المتنبّي في هذا البيت يكثّر الذّات بأوصاف مختلفة رغم وحدتها في الأصل، فهو يجعل سيف الدّولة ثلاث ذوات في لحظة التّلفّظ نفسها، فهو محلّ الخصام، والخصم والحكم، وفي هذا حجاج بأنّه أضعف من أن يأخذ حقّه منه، إذ ليس هناك – في نظره – قاض محايد أو قضيّة خارجة.[3] هذه أبرز الفنون البلاغيّة التي تتميّز بالقوّة وتنبني على المتلقّي في تفجير دلالتها الكثيرة.[4]

5 ـ المشتقّ (الموجّه التّأويليّ):

يقصد بالمشتّق استخراج علّة من جنس اللّفظ تكون وسيلة لتوجيه الفعل التأويليّ على النحو الذي أراده صاحب النّص، ويرجع أصل هذا الفنّ إلى أبي هلال العسكريّ، إلاّ أنّ أنّه

---

[1]– عمارة ناصر، **الفلسفة والبلاغة – مقاربة حجاجيّة للخطاب الفلسفي**–، الدّار العربيّة للعلوم، بيروت–لبنان، ط1، 2009، ص 147. (الإحالة).

[2]– المصدر السّابق، ج 2، ص 1009.

[3]– ينظر: عبد الهادي بن ظافر الشّهري، **استراتيجيات الخطاب –مقاربة لغويّة تداوليّة**–دار الكتاب الجديد المتّحدة، بيروت – لبنان، ط/، 2004، ص 490.

[4]– للتّوسّع ينظر: مقالنا حول **الاستدلالي البلاغي**، مجلّة الآداب واللّغات، برج بوعريريج، العدد5، ديسمبر2016، ص ص 136–155.

خصّه بالذّم فقط؛ أيّ أنّ الشّاعر يستخدم قدرته على الاشتقاق من اللّفظ في التّشاؤم والذّمّ[1]، غير أنّ الشّعر العربيّ يزخر بكثير من الأمثلة المتميّزة تظهر إبداع الشّعراء في التلاعب بالمشتقّات في سائر أغراض الشّعر، وأكثر من اشتهر بهذا الأسلوب على الإطلاق المتنبّي في قصائده السيفيات والبدريات؛ حيث نجده يستعمل أسماء العلم مثلاً استعمالات مميّزة واشتقاقات فريدة.

من أبرز الممدوحين الذين استغلّ أسماءهم في مدحهم بدر بن عمّار[2]. استعمل الشّاعر لفظ البدر ليرسم منه صورة لبدر وهو الممدوح الذي لم يكن يوماً هلالاً، بل خلق كاملاً، ومعناه أنّ الممدوح لم يصل هذه المنزلة بعد نقص كان فيه، بخلاف ما يعتري البدر، وفي هذا يقول المتنبّي:[3]

إِلَى البَدْرِ بْنِ عَمَّارَ الذِي لَمْ يَكُنْ فِي غُرَّةِ الشَّهْرِ هِلَالاً
وَ لَمْ يَعْظُمْ لِنَقْصٍ كَانَ فيهِ لِكُلِّ مُغَيَّبٍ حَسَنٍ مِثَالاً

وفي أغلب قصائد مدح بدر بن عمّار تكرار لاسمه بأوصافه ومشتقّات اسمه كما قدّمنا، وفي هذا فوائد عديدة أهمّها: أنّ المتنبي قد سنّ سنّة في المدح وهي التّخصيص أي إفراد الممدوح بهذا المدح فلا يمكن أن يمدح به أحد سواه، وهذا بخلاف المدح الذي قبله، فـ « المتنبّي من الشّعراء القلائل الذين استطاعوا أن يهربوا من فخّ التّعميم في جزء من قصائدهم، فهو يحاول تخصيص مدائحه بتناوله الصفات الخاصّة في الممدوح والتي يختصّ بها دون غيره من الممدوحين»[4]، ومن أهم هذه الخصائص اسم الممدوح الذي لا يملكه سواه؛ فالاشتقاق من اسم

---

[1]– ينظر: أبو هلال العسكري، **الصّناعتين**، ص 340.

[2]– محمّد الخبّاز، **صورة الآخر في شعر المتنبّي**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 2009، ص106.

[3]– البرقوقيّ، ص 890 و 896.

[4]– محمّد الخبّاز، **صورة الآخر في شعر المتنبّي**، ص103.

الممدوح سيكون بمثابة الختم على القصيدة التي يقتنع الممدوح أنّها له وحده، وأنّه الجدير بها دون سواه، ممّا يجعله يغوص في القصيدة، ويتقبّل أفكارها ويستجيب لدعواها.

أمّا عن لقب (سيف الدّولة)؛ فقد استغلّه أحسن استغلال في أغلب مدحه، وطوّعه كيف شاء؛ فمن ذكره صراحة إلى استغلال مشتقّاته، حيث ولّد منه الدّلالات المدحيّة التي تخدم القصيدة وتعمّق في تأثيرها وتزيد من خصوصيتها. وسنورد بعض الأمثلة على سبيل الذّكر لا الحصر:[1]

إِنَّ الخَلِيفَةَ لَمْ يُسَمِّكَ سَيْفَهَا حَتَّــى بَلَاكَ فَكُنتَ عَينَ الصَّارم

... وَإِذَا انتَضَاكَ عَلَى العِــدا فِي مَعْرَكٍ هَلَكُوا وَضَاقَت كَفُّهُ بِالقَائِمِ

ومن شدّة الخصوصيّة التي فرضها الاشتقاق المتنوّع لكلمة السّيف ودلالاته، خُتم اسم سيف الدّولة على هاته القصائد وصارت تسمّى (السّيفيّات)[2].

2- بلاغة التّأويل:

التّأويل من المفاهيم التي أسالت الكثير من المداد عبر تاريخ الفكر الإنسانيّ السحيق، من لدن اليونانيّين مروراً بتميّز المسلمين وصولاً إلى الانفجار التّأويليّ المعاصر. وإذا كان التّأويل محاولةً واعيةً لكتابة نصّ على نصّ فإنّ هذه الكتابة اتّخذت أبعادا مهمّة جعلت من فعل التّأويل فعلا يتراوح فيه المؤوِّل بين وضعيات ثلاث؛ فتارة نرى المؤوّل مستسلماً لمراد المنتِج خاضعاً لسلطته، وتارة متمرّداً عن قصده باسطا يده على النّصّ ليقول ما يريد، وحيناً نرى المؤوّل معتدلاً متوازياً بين قصده وقصد صاحب النّصّ كاشفاً عن خباياه باحثاً عن درره دون حياد ولا ميل[3].

يتبيّن ممّا سبق أنّ بلاغة التّأويل تقف على شقّين أساسيين هما:[4]

---

[1]- محمّد الخباز، **صورة الآخر في شعر المتنبّي**، ص103.

[2]- المرجع نفسه، ص 111.

[3]- ينظر: محمّد بازي، **التّأويليّة العربيّة**، ص ص 150- 153.

[4]- ينظر: محمّد بازي، **نظريّة التّأويل التّقابلي**، ص 66. و: علي الشّبعان، **الحجاج والحقيقة وآفاق التّأويل**، ص 482.

ت- بلاغة الفهم: ولا تتحقّق إلاّ باعتماد العلوم الآلية الموصلة إلى ذلك، كالموهبة والبحث اللغويّ والنّحوي والصّرفيّ والبلاغيّ بفنونه الثلاثة، وكذا امتلاك الذّائقة المتكوّنة من تراكم المقروء.

ث- بلاغة الإقناع: بعد تحقّق الفهم لدى المؤوِّل يسعى إلى تبريره وتعضيده بالأدلّة والحجج، ولعلّ النّاظر في التّراث التّأويليّ العربيّ والإسلاميّ يرى تلك الصّبغة الحجاجيّة الواضحة التي اصطبغ بها التّأويل، وفرضها هاجس السّيطرة على مسالك المعنى، وحمْل المخاطبين على التّصديق بها والتّسليم لها، وإفحام المناوئين الحقيقيّين أو المزعومين.

إنّ التّأويل إذاً فعلٌ إقناعيٌّ يحتجّ فيه المؤوّل للمعنى الذي وقف عليه بفضل آلياته التّأويليّة، هاته الآليات التي هي آليات حجاجيّة في الوقت ذاته؛ وذلك أنّ النّص قد تجري عليه ممارسات تأويليّة كثيرة تؤدّي إلى «**جدل تأويليّ حول تملّك الحقيقة الأصليّة المودعة في النّص**»[1]، فإقناع المتلقي سواء أكان بسيطا أو خصماً مؤوّلاً مرهون بمدى كثرة الآليات التّأويلية/ الحجج التّأويلية،[2] ومدى إحكام القبضة عليها، وتسخيرها لعمليّة الفهم والإفهام.

- **آليات الفهم في بلاغة التّأويل:**

لقد آل بنا التّأصيل لبلاغة التّأويل إلى الوقوف عند أساسين مهمّين تتأسّس عليهما، هما بلاغة الفهم وبلاغة الإقناع، فالمؤوِّل إذ يبني خطابه التّأويليّ/ الإقناعيّ، يسخّر في ذلك «كلّ الآليات الخطابيّة والموجّهات المقاميّة المتاحة والمفترضة، ليجعل الحطاب التّأويليّ -بما هو خطاب مصاحب- رشحاً فاعلاً يثبت النّص، لا بل يعرّفه ويسمّيه»[3]، ليغدو الخطاب التّأويليّ

---

[1]- المرجع نفسه، ص 477. وأكثر النّصوص جدلاً تأويليا النّصوصُ الدّينيّة، فباختلاف الفرق والمذاهب كثر التّأويل، والرّصيد التّأويليّ الموروث عن الأسلاف شاهد على هذا الجدل.

[2]- للتّوسع في آليات التّأويل وتساندها يرجى الرّجوع إلى كتابي **(التّأويليّة العربيّة)** و**(صناعة الخطاب)** لمحمد بازي، حيث أفاض في التّفصيل فيها والتّمثيل لها من خلال تطبيقه على موروثين تأويليين هما **(تفسير الزّمخشري)** و**(التبيان في شرح الدّيوان)** للعكبري، ومن خلالهما بيّن دور التّحكّم في الآليات التّأويليّة في استنطاق النّصوص وشرعنة هذا الاستنطاق.

[3]- علي الشّبعان، **الحجاج والحقيقة وآفاق التّأويل**، ص 474.

محصّلة المعارف التي جمعها المؤوِّل خدمة النّصّ، جاعلاً إياها آليات تأويليّة وأدوات حجاجيّة، وقد قسّمها محمّد بازي إلى قسمين: آليات داخليّة (نصّيّة) وأخرى خارجيّة، وسنستحضرها بإيجاز لضيق المقام:[1]

1 ـ **الآليات التّأويليّة النّصّيّة:** وهي كلّ المؤشّرات النّصيّة الدالّة التي ينطلق منها الفعل التّأويليّ، بل هي مداخل النّصّ ومفاتيح المعاني، وأبروها:

– **المدخل اللّغوي:** الاهتمام باللّغة من ثوابت التّأويل، لأنّ النّص بمفرداته نسيج لغويّ، ولا بدّ للمؤوِّل من امتلاك ذخيرة لغويّة تمكنّه من تمييز استعمال المفردات تواضعياً أو مجازاً، غريباً أو مألوفاً، وتعدّ هذه الآلية عمود القراءة التّأويليّة ونواتها.

– **المدخل الاشتقاقي:** بهذه الآليّة يتوسّع نظام التّأويل إلى توليد الدّلالات من الجذر اللّغويّ وفق قانون الاشتقاق.

– **المدخل النّحوي:** يعدّ هذا المدخل من أهمّ العناصر التّأويليّة خاصّة في الحضارة العربيّة الإسلاميّة، فالحالات الإعرابيّة هي الموجّه الأساس لعمليّة الفهم.

– **المدخل البلاغي:** ويتمثّل في الظّواهر البلاغيّة المختلفة التي لا يمكن لأي نص الخلوّ منها، وكثير من هذه الظّواهر تمتاز بانفتاح النّص على الاحتمالات التي لا ينبغي للمؤوِّل أن يسرف فيها.

وعلى هذا الأساس فإنّ التّأويل مشروط ومضبوط بقيود لغويّة متناسبة منسجمة لو تعداها فقد شرعيّته ودحضت حجّته، هذه القيود اللّغويّة هي التي تسهم في الدّفاع عن الفهم، وتحقيق أعلى درجات المقبوليّة.

2 ـ **الآليات الخارجيّة:** وهي المعطيات التي لا تتدخّل في بنية النّصّ، ولكنّها اؤدّي دوراً بارزا في عمليّة الفهم ومساندتها، وأهمّ هذه الآليات:

---

[1]– ينظر: محمّد بازي، **التّأويليّة العربيّة**، ص ص 159 وما بعدها.

- **المناسبات ومقام الخطاب:** هي الظّروف المشكّلة للنّصّ، والإحاطة بها تنير النّصّ وتساعد على تمثّله، إذ لا يمكن عزل النّصّ عن مقاماته ولنا في قضيّة **أسباب النّزول** دليل صارخ على شناعة عزل النّص عن سياقاته وظروفه.
- **النّصوص الموازية:** وهي كلّ الأشكال النّصيّة التي تُستدعى لتكمّل فعل الفهم وتعضّده وتدلّل عليه، ومن هنا تعتبر هذه النّصوص بمثابة الاستدلال على خطوات التّأويل المختلفة (الاستدلال على مسألةٍ لغويّة أو نحويّة أو بلاغيّة).
- **المادّة الخبريّة:** تتمثّل في المادّة الخبريّة التي يوردها المؤوِّل لملء البياض وتوسيع المحتوى وتعضيده، لانّ استحضار هذه النّصوص يؤدّي إلى توجيه القراءة إلى بعض مقاصد الخطاب التي لم تدرك بالآليات السّابقة.

إنّ هذه الآليات التي ذكرناها بإيجاز شديد تمثّل العروة الوثقى لعمليّة التّأويل، ولو اختلّت واحدة منها لانفرط عقد التّأويل وفقد شرعيّته ووهن عظمه وضعفت حجتّه، ففي كلّ نصّ قرينة لا تدرك إلّا بواحدة من هاته الآليات، من الأصغر إلى الأكبر توجيها دقيقاً متناسباً.

ومن هنا يتأكّد الطّابع الحجاجيّ للتّأويل خاصّة في التّراث العربيّ الذي أدّى فيه الجدل التّأويليّ، وانعدام البلاغات إلى إثقال الأمّة بالجراح، ومن جهة أخرى تحرص بلاغة التّأويل على إخراج الحجاج من قوقعة البرهان والاستدلالِ الصّوريِّ إلى رحاب اللّغة الطّبيعيّة التي تجعل منه ممارسةً تأويليّةً، ممّا يجعل من العلاقة بين التّأويل بوصفه خطابا بلاغيّاً والبلاغة بوصفها ممارسة تأويليّة ضرورة راهنة تستحقّ الإفراد بالبحث والتّأليف.

المحاضرة السّابعة:

الأساس التّقابلي في البلاغة العربيّة.

رأينا في المحاضرة السّابقة أنّ الظواهر البلاغيّة هي التي تهب الخطاب التّعدّد والثّراء الدّلاليّ، لما تتميّز به بنياتها من الإثارة والاستفزاز، وفي هذه المحاضرة نستشفّ منها خاصّية أخرى إلا وهي خاصّيّة التّقابل، حيث تسعى بلاغة التأويل كغيرها من الاتجاهات اللّغويّة والنقديّة المعاصرة إلى استكناه الطّاقات الكامنة في البلاغة القديمة، وذلك بتنزيل النّظريّات المعاصرة على الظّواهر البلاغيّة، ممّا يساعد على فهم جديد لتلك الظّواهر.

1/ وعي النّقاد والبلاغيّين القدماء بقضيّة التّقابل:

تعتبر البلاغة العربيّة القديمة من أهمّ الأسناد المعرفيّة لبلاغة التّأويل، خاصّة في شقّها المبنيّ على نظريّة التقابل، حيث يرى صاحب النّظريّة أنّ البلاغيّين القدماء قد وعوا قضيّة التّقابل، فينقل قول ابن سيده (458هـ): «**ومقابلة الشيء بالشيء أذهب في الصّناعة**»[1]، كدليل واضح على هذا الوعي، وفي قول ابن سيّده ندرك النّزعة التّأويليّة التي يرمي إليها؛ فكأنّ إدراك التّقابل لا يحص إلّا لمن بعدت نظرته وتوقّدت فاهمته، فليست العبرة في التّقابلات الظّاهرة للعيان، وإنّما في استدعاء التّقابلات الغائبة من خلال الطرف المذكور، وفي قول القرطاجنّي (684هـ) التّالي ندرك ما كان يقصده ابن سيده، يقول: «**إذ لكلّ معنى معانٍ تناظره وتنتسب إليه على جهات من المماثلة والمناسبة والمخالفة والمضادّة والمشابهة والمقاسمة**»[2]، في هذا القول نرى القرطاجنّي لا يكتفي بالحديث عن التّقابل بل يحدّد بعض أنواعه، كالمخالفة

---

[1]– محمّد بازي، **نظريّة التّأويل التّقابلي**، ص 135.

[2]– حازم القرطاجنّي، **منهاج البلغاء وسراج الأدباء**، تحقيق محمّد الحبيب بلخوجة، دار الغرب الإسلاميّ، بيروت، ط3، ص278.

والمضادّة والمشابهة، ولا يمكن لهذه الأنواع كلّها أن تتجلى في ظاهر النّصّ، وإنّما يستحضرها القارئ استحضاراً.

2/ التّقابل في بعض الظّواهر البلاغيّة:

تتّكئ البلاغة بشكل كبير على التّقابل، فإذا كان الطّباق والمقابلة مثلاً لا يحتاجان إلى إثبات هذا التقابل، كلّ مفاهيم البلاغيّة الأخرى تتبني عليه، ولكن لا يدرك ذلك إلّا بتحريك آلة الفهم وخوض لجّة التّأويل. ومن أهمّ أسباب عودة بلاغة التّأويل إلى هذا القانون البلاغيّ المغيّب هو إدراكها لأهمّية التّقابل في تحقيق الفهم وتفجير الدّلالة، وفي هذه المحاضرة نأخذ بعض الظّواهر البلاغيّة على سبيل التّمثيل لا الحصر.

2ـ أ/ استحضار التّقابل في البنيات التّشبيهيّة:

التّشبيه من أهمّ الفنون البلاغيّة وأكثرها دوراناً على الألسن شعراً ونثراً وتواصلاً، ويقوم التّشبيه على أساس تقابليّ لا يدرك إلّا بإعمال آلية التّأويل، فصانع الخطاب يبني التّشبيهَ والمتلقّي يعمل على الجمع بين طرفيه[1] ومن ثمّ فهمه، فالتّشبيه يقوم على أساس «**تصوّر المعاني بشكل تقابليّ، انطلاقاً من عالم تتقابل فيه الماديات بالمعنويات: ما يعرف بالحواس وما يعرف بالفكر**»[2]، فقد يشبَّه المادّيّ بالمعنوي وقد يشبّه المعنوي بالمادّيّ، وهذا كثير في المنتوج الأدبيّ في سائر الحضارات، وهذا التقابل الحاصل بين العالمين هو سرّ الإبداع في التّشبيه ومكمن ثرائه الدّلاليّ.

2ـ ب/ التّقابلات الاستعاريّة:

أوّل ما يقابلنا من التّقابلات الكامنة في الاستعارة هو التّقابل بين طرفيها: المستعار منه والمستعار له، وكذا التّقابل بين الحقيقة والمجاز، وإن اكتفينا بهذا القدر في إثبات التّقابل في الاستعارة بهاذين التّقابلات لظلمنا الاستعارة، فالاستعارة تشمل ما في التشبيه من تقابل بين

---

[1]- ينظر الصّفحات: 41-42-43. من هذه المحاضرات.

[2]- محمّد بازي، **نظريّة التّقابلي**، ص 138.

العالم المعنوي والعالم الحسّي، كما أنّها تحدث التّقابل بين عالمي الحقيقة والمجاز، وهذا ما يجعلها حبلى بالمعاني متفجّرة بأنواع التّقابل.

انتبه كثير من علماء اللّغة إلى فرادة الاستعارة وتميّزها، ومن هؤلاء محمّد بازي، ففي إطار توسيع أفق بلاغة التأويل، وعلى الخصوص نظريّة التأويل التّقابليّ، ركّز الاهتمام على الاستعارة بشكل كبير جدّاً حتّى خصّها بكتاب سمّاه (البنى الاستعاريّة، نحو بلاغة موسّعة)[1]، هذا الكتاب الذي يزخر بأنواع الاستعارة التي ابتكرها الباحث: كالاستعارة المنواليّة، الاستعارات الافتراضيّة، الاستعارات الهندسيّة، استعارة الأنوال القوليّة، استعارة الأنوال التّأويليّة، وغيرها من المفاهيم الجديدة التي تنبئ عن الكون الذي يختفي وراء الاستعارات.

2ـ هـ/ التقابل في الالتفات:

الالتفات أسلوب بلاغيّ مميّز، غير أنّه لم ينل حظّه من الدّراسات، إلّا ما كان منها حول القرآن الكريم، ولمّا كان الالتفات هو «**هو التّحويل في التّعبير الكلاميّ من اتّجاه إلى آخر من جهات أو طرق الكلام الثّلاث (التّكلّم، الخطاب، الغيبة)**»[2]، ويحصل التّقابل في هذا الفنّ بين الذّوات التي يتحوّل الخطاب بينها، ففي قوله تعالى: ﴿**حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ**﴾ الآية، يتحوّل الخطاب القرآنيّ من ضمير الجمع المخاطب (أنتم) إلى ضمير الجمع الغائب (هم)، ولنتأمّل هذا التحوّل وما يحمله من معاني جليلة فاللّه جلّ ثناؤه يتعامل بمنتهى الأدب مع المخاطب، ففي حال الاستقرار والطمأنينة استعمل الخطاب المباشر، أمّا في حالة

2ـ و/ حتميّة التّقابل في فنّ التّغاير:

التّغاير من الأساليب البلاغيّة العجيبة لما يحويه من لمسة فلسفيّة وما يطويه من مسحة منطقيّة، وهذا يمكن استخلاصه من تعريف ابن رشيق: «**هو أن يتضاد المذهبان في المعنى**

---

[1]– محمّد بازيّ، **البنى الاستعاريّة، نحو بلاغة موسّعة**، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2017.

[2]– عبد الرحمن بن حبنّكة الميداني، **البلاغة العربيّة؛ أسسها وعلومها وفنونها**، ص 479.

حتّى يتقاوما، ثمّ يصحّا جميعاً»[1] وقد شهد ابن رشيق للمتنبّي بالتّفوّق فيه نظراً لقدرته واتّساعه في المعاني، وقد أورد كثيرا من الشّواهد[2] التي خالف فيها المتنبّي مذاهب الشّعراء وغايرهم بما هو أقرب للعقل وأوضح للعيان، فيخالف أبا تمّام في تقديمه التّكرّم على الكرم المطبوع:[3]

فَعَلِمْنَا أَنْ لَيْسَ إِلَّا بِشِقِّ النَّـــ فْسِ يُدْعَى الْكَرِيمُ كَرِيمَا

بقوله:

لَوْ كَفَرَ الْعَــالَمُونَ نِعْمَتَهُ لَمَا عَدَّتْ نَفْسُهُ يَوْمًا سَجَايَاهَا

كَالشَّمْسِ لَا تبْتَغِي بِمَا صَنَعَتْ تَكْرِمَةٌ عِنْدَهُمْ وَلَا جَاهَا

وفيما يلي رواية أخرى بين المتنبّي وابن عبّاس النّوبختي مفضّلاً القلم على السّيف:[4]

إِنْ يَخْدُمِ القَلَمُ السَّيْفَ الذِي خَضَـــعَتْ لَهُ الرِّقَابُ وَدَانَتْ خَوْفَهُ الأُمَمُ

كَذَا قَضَى اللَّهُ لِـــلأَقْلَامِ مُذْ بُرِيَتْ أَنَّ السُّيُوفَ لَهَا مُذْ أُرْهِفَتْ خَدَمُ

فَالمَوْتُ وَالمَوْتُ لَا شَيْءٌ يُعَادِلُهُ مَا زَالَ يَتْبَعُ مَا يَجْرِي بِهِ القَلَمُ

والذي يعدّه سالما من الطّعن صحيح المعنى متقن المبنى، إلّا أنّ المتنبّي خالفه بما يشهد بصحّته العيان ويصحّحه البرهان، فيقول مفضّلا السّيف على القلم:

حَتَّى رَجَعْتُ وَأَقْلَامِي قَوَائِلُ لِي المَجْدُ لِلسَّيْفِ لَيْسَ المَجْدُ لِلْقَلَمِ

أُكْتُبْ بِنَا أَبَدًا قَبْلَ الْكِتَابِ بِـهِ فَإِنَّمَا نَحْنُ لِلْأَسْيَافِ كَالْخَدَمِ[5]

---

[1]– ابن رشيق، العمدة، ص 100.

[2]– ينظر: المصدر نفسه، ص 101–102–103.

[3] – الخطيب التّبريزي، **شرح ديوان أبي تمام**، تحقيق: راجي الأسمر، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، ج2، ص113.

ورواية الدّيوان:

فعَلِمْنَا أَن لَيْسَ إِلَّا بِشِقِّ النَّفْـــ ـــسِ صَارَ الْكَرِيمُ يُدْعَى كَرِيمَا

[4]– لم يتيسّر لنا الرجوع إلى ديوانه، ولعلّه من الدّواوين الضّائعة، لذلك اكتفينا بشاهد صاحب العمدة.

[5]– هذه رواية الدّيوان بشرح البرقوقي، ج2، ص 1173–1174. أمّا رواية ابن رشيق فهي كما يلي:

اُكْتُبْ بِذَا قَبْلَ الكِتَابِ بِهَا فَإِنَّمَا نَحْنُ لِلْأَسْيَافِ كَالْخَدَمِ

ويغاير أبا الشّيص في قوله متغزّلا:[1]

أَجِدُ المَلَامَةَ فِي هَوَاكَ لَذِيذَةً حُبًّا لِذِكْرِكِ فَلْيَلُمْنِي اللُّوَّمُ

حيث جعل يطرب لسماع من يلومه في محبوبته لأنّه يذكّره بها، بل طلب الاستزادة من اللّوم حتّى يسمع المزيد عن محبوبته، أمّا المتنبّي فإنّه لا يقبل اللّوم في حبّه، لأنّ المحبّ الصّادق لا يتحمّل أن يسمع في حبيبه ما يضرّ به، فكيف لقلب كبّله الحبّ وملكه الهوى أن يسمع عن المحبوب ما يشين الحبّ ويخدش الهوى ثمّ يعجب ويطرب، هذا ضدّان لا يلتقيان:[2]

أُحِبُّهُ وَأُحِبُّ فِيهِ مَلَامَةً إِنَّ الْمَلَامَةَ فِيهِ مِنْ أَعْدَائِهِ

ومن هنا فلا يتحقّق فهم المراد من هذا الأسلوب البلاغيّ إلّا باستحضار طرفيه، ويتطلّب هذا الأسلوب معرفة واسعة بالشّعر حتّى يتسنّى العثور على طرفي التّغاير، وهذا التّقابل الحاصل في التّغاير يمكّننا من عقد المقابلة بين تجربتين شعرتين وفلسفتين متباينتين، ثمّ نبني معنى يقف على هذين الأساسين البارزين.

من هنا يظهر لنا جانب من الغنى الدّلالي الذي تمتلكه البلاغة، ولهذا عدّت ركنا تركن إليه بلاغة التّأويل، وهذه نماذج فقط من فنون البلاغة الكثيرة والمتعدّدة. إنّ هذا التحليل الدّقيق لمكوّنات البنية البلاغة يدّل على العمق الذي تنشده بلاغة التّأويل من خلال الإجراء التقابليّ.

---

[1] – عبد الله الجبوري، **ديوان أبي الشّيص الخزاعي وأخباره**، المكتب الإسلامي، بيروت، ط1، 1984، ص 102.

[2] – عبد الرحمان البرقوقي، **شرح ديوان المتنبّي**، ج1، ص 93.

المحاضرة الثّامنة:

الفهم بالتّقابلات.

تعتبر كثير من نظريات التّأويل النّصَّ ارتساماً للوجود وتجلٍّ من تجلياته، فهو الشّكل المكتوب له، والصّورة النّاطقة منه، لذا كان لزاماً على المؤوِّل أن يستنطق الوجود من خلال النّصّ، وأن يستكنه أسراره من خلال اللّغة، ومن أبرز مفاتيح الوجود وأدوات فهمه إدراك التّقابلات الدّقيقة التي يقوم عليها، وكذا تحديد العلاقات العجيبة بينها.

ومن هذا المنطلق أثبتت نظريّة التّأويل التّقابليّ وجودها واكتسبت شرعيّتها، حين قدّمت نفسها بديلاً إجرائيّا ومنهجاً قرائيّاً يراهن على تكبير المعنى وتدقيقه، ويثبت العلاقة الخالدة بين النّصّ والوجود من جهة، والإنسان والوجود من جهة أخرى.

1-تعريف النّصّ وفق التّصوّر التّقابلي:

تركّز نظريّات التّأويل المعاصرة على قضيّة التّقابل وما يقدّمه من إمكانات توسّع المعنى وتكبّره، فإذا كان النّصّ في التّصور التّأويليّ التّقابلي هو «**مجموع التّقابلات المعجميّة والدّلاليّة والسّياقية المنتظمة في الخطاب الذي تحمله والمحيلة على الكون الفسيح، والنّصّ كون لغويّ متقابل، ومنطلق رحلات دلاليّة وتأويليّة عالمة وبليغة**»[1]، إنّ هذا التّحديد التّقابليّ للنّص الذي يعتبر خلاصة النّظر التّقابليّ يتميّز عن كثير من تعريفات النّص التي تكتفي في أغلبها ببنيته الظّاهرة والعلاقات الدّاخليّة المكوّنة له، فهو ينفسح على الظّاهر والمضمر والحاضر والغائب والدّاخل والخارج.

[1]- محمّد بازي، **نظريّة التّأويل التّقابلي**، ص206.

ويمكن لنا من خلال هذا التّعريف أن نتلمّس منطلقات النّظريّة وفرضياته المتعدّدة والتي يمكن لنا أن نجملها في العناصر التّاليّة:[1]

- النّصّ عالم من التّقابلات الظّاهرة والخفيّة.
- منتج النّصّ يحوّل العالم المتقابل في تفاعله مع الذّات إلى عالم من المعاني المتقابلة.
- هذه التّقابلات الظّاهرة والخفيّة لها من القوّة ما يبلّغ المقاصد والغايات، ويحقّق التّأثير المرغوب فيه.

ومن هنا فإنّ فهم النّص لا يتحقّق إلّا بإدراك التّقابلات التي تشكّله، سواء أكانت تقابلات ظاهرة أو مضمرة، حاضرة أو مستحضرة، وهذا هو الرّهان الذي تقدّمه هذه النّظريّة انفتاحاً للنّص على نفسه وعلى غيره من النّصوص، وسنركّز في هذه المداخلة على القضايا المهمّة في الكون متجاوزين التّقابلات البلاغيّة واللّفظيّة، وهدفنا الأساس هو تلمّس فلسفة الشّاعر التي تختار للإنسان موقعه في هذا الكون.

2/ مفهوم التأويل التّقابلي:

من خلال تحديد التّصوّر التّقابليّ للنّص يتّضح الإجراء التّقابليّ في فهم النّصوص والخطابات، فهو «**أداة بيان المعنى وتفهيمه عبر إحداث التّقابل بين المعاني والعناصر بما يوضّحها أكثر، لأنّ التّقابل حاصل في التّفكير المنتج للّغة، وفي انتظام الكلمات والمعاني، ويجلّيه التّقابل بمستوياته الكثيرة، ومظاهره التي ينفسح لها ذكاء المتفهّم واجتهاده**»[2]، وعلى هذا الأساس يتّضح الدّور البارز للتّقابل؛ فهو « **في كلّ الحالات يكسب المعنى الشّعريّ عمقاً، وينفث حوله شيئاً من التّوتّر**»[3]، فالشاعر يعمد في كثير من المواقف إلى صناعة التّقابل

---

[1]– ينظر: سليمة جلال، **نظرية التّأويل التّقابلي من التّأصيل إلى التّجريب**، مجلّة فتوحات، جامعة عباس لغرور، خنشلة، العدد2، جوان 2015، ص 241–242.

[2]– محمّد بازي، **نظريّة التّأويل التّقابلي**، ص81.

[3]– شفيع السّيّد، **قراءة الشّعر وبناء الدّلالة**، دار غريب، القاهرة، ط/، 1999، ص17.

بتجاوز الأضداد والمتناقضات وعياً منه بسعة أفق التّقابل، فالمسار الخطّي للنّصّ هو الذي يسهم بدرجة كبيرة في تأسيس العلاقة بين الأشياء. وإذا تجاوزنا المستوى الخطّيّ إلى المستوى العميق أدركنا من التّقابلات ما نفجّر به المعنى والدّلالات. فالتّأويل التّقابليّ يقوم على نوعين من التّقابلات هما دعامة المقاربة التّداوليّة، ومن خلالهما يستطيع المؤوِّل استكناه التّقابلات الدّاخليّة للنّصّ:[1]

أ- التّقابلات الأفقيّة:

ونقصد بها أنّ عنصراً ما (أ) يقابله في البنية الخطّيّة للملفوظ عنصر (ب)؛ أي في الجملة الواحدة أو في البيت الشّعريّ الواحد مثلاً، وقد تحصل تقابلات أفقيّة كثير في جملة واحدة، وتتشكّل هذه التّقابلات من المفردات، كالطّباق والمقابلة والمشترك وغيرها.

ب- التّقابلات العموديّة:

ونقصد بها تقابل معنىً في البنية الظّاهرة مع عنصر في البنية العميقة عبر التّلميح والكناية والاستعارة والمفارقة وغيرها ممّا ينبني على التّركيب الغامض والمحتمل للانفتاح الرّاجي للتّعدّد.

يتجاوز المؤوِّل المستوى الظّـــــاهر، ويتحرّر من رقبة اللّفظ إلى سعة التنقيب والتّأويـــل وتعدّد المعنى، والغوص في تخوم الأسطر، لينتهي إلى تفجير النّصّ بالدّلالات وفكّ الملغوز الذي تقصده كثير من النّصوص الإبداعيّة[2].

ومن هنا ينبغي على المؤوِّل أن يتحرّى كلّ أنواع التّقابلات ويحدّد العلاقات بينها، بدءا من أصغر المكوّنات المشكّلة للتقابل كالأوزان والمشترك والطّباق إلى أوسع مدى يمكن أن يبلغه الإجراء التّقابليّ كتقابل النّص مع النّصوص الأخرى وكذا تقابله مع السياقات التي

---

[1]- ينظر: محمّد بازي، **نظرية التأويل التقابلي**، ص ص 81 -82.

[2]- ينظر: عزّت السيّد أحمد، **حدود التّأويل**، ص 513.

تركّز عليها نظريّة التّأويل، سواء أكانت سياقات الإنتاج أم سياقات التّأويل التي تختلف باختلاف المعطيات التي يتيحها تطوّر المعارف وتلاقح العلوم.

وإذا وضعنا ملكة التّأويل والمسبقات المعرفيّة للمؤوِّل في الحسبان، فإنّنا نسلّم بأنّ توفيق المؤوِّل في إدراك التّقابلات يختلف من مؤوِّل لآخر، فالتّقابلات التي يتيحها النّص كثيرة ومنبثقة عن مجالات معرفيّة مختلفة، وقد أوصلها صاحب النّظريّة[1] إلى سبع وثلاثين نوعاً من التّقابل نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:[2]

- تقابل الإثبات والنّفي.
- تقابل الأمكنة.
- التّقابل الزّمني.
- تقابل التّحاور.
- تقابل التّراتب.
- تقابل التّشابه.
- التّقابل النقيضي.
- تقابل النّصّ والعنوان.
- تقابل النّص وسياقه.
- تقابل النّص والنّصوص الأخرى.
- تقابل الظّاهر والباطن.
- تقابل حال الذّوات.
- تقابل الفاعل والمفعول.

---

[1]– نقصد به الباحث المغربي محمّد بازيّ.

[2]– ينظر: سعيد العوادي، **بلاغة التّأويل والتّقابل البديعي، محاولة في التّوسيع**، ضمن كتاب **النّموذج التّأويليّ التّقابلي، معالم التّأصيل ومستويات التّنزيل**، دراسات محكّمة في أعمال محمّد بازي، إعداد: إبراهيم أسيكار، مقاربات للنّشر، المغرب، 2018، ص ص 38–39.

وغيرها من التّقابلات التي يهدف مقترحها إلى إخراج التّقابل من التّصوّرات الضّيقة التي تحصره في التّضاد والمقابلة، وتوسّعة سعة الكون الذي تستمدّ نظريّة التّأويل التّقابليّ شرعيّتها منه ومن قوانينه ومسّلماته، فهي تتبّع التّقابلات من الصّغرى إلى الكبرى الموسّعة، من داخل النّصّ إلى نصوص أخرى ثمّ إلى السياقات المتعدّدة التي تصنعه وبها ينظرف.

3/ مستويات التقابل:

يتمّ التحليل التقابليّ عبر مستويات متدرّجة تنطلق إمّا من الأصغر إلى الأكبر وإمّا من الأكبر إلى الأصغر، ثمّ تترح الحريّة في بناء التحليل التقابلي على حسب ما يهبه النّص ميدان التحليل، وأهمّ هذه المستويات:

- التقابل على مستوى الكلمات.
- التقابل على مستوى الجمل.
- التقابل بين النصّ والعنوان.
- التقابل بين النص والتجربة الكاملة لصاحب النص.
- تقابل النص والنصوص الأخرى.
- تقابل السياقات (الحالات).

ومن هنا يمكن تطبيق إجراءات التّأويل التّقابليّ على سائر النّصوص والخطابات قديمها وحديثها، شعرها ونثرها، وقد قارب محمّد بازي أنواعا كثيرة من الخطابات مقاربةً تقابليّة في كتابه **تقابلات النّصّ وبلاغة الخطاب**[1]، فمن الشّعر القديم إلى المعاصر إلى الخطاب السرديّ، وكذا الخطاب الدّيني ممثّلاً بأبي حامد الغزالي من خلال كتابه **إحياء علوم الدّين**، إلى نصوص الحِكم والمناقب، ممّا لا يدع مجالاً للشكّ في صلاحيّة المقاربة التّأويليّة كإجراء قرائيّ إبداعيّ لكلّ خطاب.

[1]– محمّد بازي، **تقابلات النّصّ وبلاغة الخطاب، نحو تأويل تقابلي**، الدّار العربيّة للعلوم ناشرون، بيروت، ومنشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2010.

المحاضرة التّاسعة:

التّقابل في النّصّ الرّوائي.

تعدّ نظريّة التأويل التّقابليّ إجراءً جديداً في مقاربة النّصوص يراهن على تكبير المعنى عن طريق رصد التّقابلات المكوّنة للنصّ، وممّا تجدر الإشارة إليه أنّ هذه النظريّة صالحة لأن تطبّق على سائر النّصوص والخطابات دون استثناء، وهذا ما أثبته الباحث محمّد بازي في كتابيه (تقابلات النصّ وبلاغة الخطاب) و: (نظريّة التّأويل التّقابليّ)، وفي هذه المحاضرة نبيّن كيف تتعامل هذه النظريّة مع جنس أدبيّ هامّ غنيّ بالمعنى مثقل بالفكر، هذا الجنس هو الرّواية، فلا يخفى ما في الرّواية من خصائص لغويّة وفنيّة وفكريّة تجعلها نصّاً متفرّداً.

1/ التّقابل في الدّراسات السّرديّة:

النصّ الرّوائيّ من النصوص الأدبيّة ذات النّفس الطّويل، ممّا يجعلها عالماً تلتقي فيه أغلب خصائص الخطاب الطّبيعيّ، فإذا أردنا الحديث عن التّقابل وجدناه لبنة أساسية من لبنات الخطاب السّردي، كالتّقابل بين الزمان والمكان، والحقيقيّ والمتخيّل، والذّاتي والغيري، والدّاخلي والخارجيّ، وغير ذلك من التّقابلات التي نلاحظها من خلال التّقنيات فقط، أمّا إذا رمنا التّقابل في الفكر الرّوائيّ وجدنا الكون المتقابل متجلّياً في هذا الخطاب.

ومع هذا الحضور الحتميّ للتقابل في الخطاب الرّوائيّ إلّا أنّ الدراسات التي تناولته كآلية قرائيّة قليلة جدّاً، فـ«**الدراسات التي تناولت الفنون السّرديّة من قصّة ورواية وغيرها لم تُعن كثيراً بإقامة دراسات شاملة تحت مسمّى التّقابل، بل كانت هناك دراسات جزئيّة مرتبطة بمكوّنات السرد من أحداث وشخصيات وزمان ومكان وغيرها**»[1]، لقد انشغلت كثير من الدراسات

[1]– عبد اللّه بن صفيّة، **التّقابل من بلاغة الجملة إلى بلاغة النّص**، مجلّة تمثّلات، جامعة تيزي وزّو، العدد الأوّل، 2015، ص79. ويذكر الباحث في هذا المقال مجموعة من الدراسات التقابليّة المعاصرة، التي كان التقابل فيها عرضيّا غير مقصود لذاته.

بالجانب السرديّ للرّواية وأغفلت بعض الظّواهر المهمّة التي تعدّ مفاتيح لفهم النصّ الروائيّ، وعلى رأس هذه الخصائص التّقابل بأشكاله المختلفة، فالنصّ الرّوائي كغيره من النّصوص الإبداعيّة هو مظهر من مظاهر الكون تتجلّى خصائه وتظهر مسلّماته، ولعلّ النصّ الرّوائيّ من أغنى النّصوص بهذه الظاهرة للنّزعة الفلسفيّة التي تطغى على أغلب النصوص الرّوائيّة، فيمكننا بكل تأكيد أن نلمح عالماً متقابلاً فيه، ولعلّ المحاور التي تقترحها بلاغة التّأويل لمقاربة النّصّ الروائيّ كفيلة ببيان ذلك.

1/ التّحليل التّقابلي للرواية:

شهد النّقد حواراً دائماً مه النّصّ بين إغراء من الأوّل وتمنّع من الثّاني؛ فلا يزال النّقد ينتج الجديد من المناهج القرائيّة التي تحاول فهم النّص والإحاطة بزواياه المختلفة، إلّا أنّه إن منح جانباً للفهم فهو يخفي جوانب أخرى، ولطالما اجتهدت المناهج في تحقيق فهم شامل للظّاهرة الأدبيّة، وتعتبر نظريّة التّأويل التّقابلي من النظريات التي تسعى إلى تحقيق نظرة متكاملة للنصّ الأدبي وذلك بالإحاطة بجميع زوايا النّص الأدبيّ من خلال المحورين الكبيرين التّاليين:

المحور الأوّل: التّقابلات المؤطّرة الكبرى للرواية:

نعني بالتّقابلات الكبرى في الرّواية تلك التّقابلات الخارجة عن البنية اللّغويّة للنصّ الروائيّ كالسياقات والتجارب والأفكار وغيرها مما يسهم كلّه في تأطير الرّواية، وتعدّ الرواية محصّلة لتفاعله، وأبرز هذه التّقابلات:[1]

1/ تقابل نصّ الرواية والتاريخ والمجتمع والذات:

تتنازع الرواية هذه العوامل؛ فتظهر الذات مقابلة للمجتمع والتّاريخ وما فيهما من معطيات تؤثّر فيها، لأنّ أكثر الروائيّين يأخذون مادّتهم من التاريخ والمجتمع، ويعيدون صياغتها وفق ما

[1]- ينظر: محمّد بازي، **نظريّة التأويل التّقابلي**، ص ص 326- 344. يعدّ هذا الكتاب المدوّنة الأساسية لنظريّة التأويل التقابلي، أما كتاب **(تقابلات النّصّ وبلاغة الخطاب)**، و: كتاب **(البنى التقابليّة)** فهما توسيع لمجال الدّراسة التقابليّة، وبيان لآفاقها الواسعة، وإثبات لرهاناتها المعرفيّة.

تقتضيه قوانين الإبداع الروائيّ، ومن هنا فإنّ إدراك التقابل بين هذه العوامل أمرٌ بالغ الأهميّة، فهل الأحداث التاريخيّة أو الظواهر الاجتماعيّة مثلاً هي نفسها أحداث الرواية التي تعيد قراءتهما؟ ما موقع الذات من التاريخ والمجتمع وما موقفها منهما؟ من هذا التقابل تنطلق عملية القراءة التقابليّة، ويشترط في التعامل مه هذه التقابلات الإلمام بالتاريخ المؤطّر للرواية وما فيه من أحداث وصراعات سياسية ودينية، وكذا معرفة المجتمع الذي نشأ فيه الكاتب وما ينبني عليه من مظاهر وعادات وتقاليد وأفكار ومعتقدات، لأنّها كلّها ستكون متقابلة فيما بينها، ثمّ بينها وبين الذات المبدعة.

2/ التقابل بين المؤلّف والنّص والقارئ:

هذه الثلاثية هي معادلة الإبداع التي تتّكئ عليها الممارسة التّأويليّة؛ فللمؤلّف مقاصد تحرّكه وتفجّر ينابيع إبداعه، كما أنّ للقارئ أيضاً مقاصده وافتراضاته التي تؤرّقه، وللنّص أيضاً مقاصده التي تحملها بنيته وتنطق بها لغته، وإذا كانت هناك خصائص ذاتيّة في الروائيّ وظروف وسياقات تؤثّر فيه، فإنّ للقارئ أيضاً ذاته الخاصّة والسياقات التي تؤثّر فيه، بل وتوجّه في بعض الأحيان.

3/ تقابل تجربة الكاتب مع كتاباته الأخرى:

من بلاغة التّأويل مقابلةُ الرواية محلّ التأويل بروايات أو نصوص أخرى للكاتب، حتى يتوسّع أفق المعرفة بالرّوائيّ وتناسل أعماله والخطّ الذي يسير في إنتاجه الأدبيّ، وعلاقة كلّ ذلك بتجربته، فما يصعب إدراكه في نصّ قد يهبه نصّ آخر.

وممّا يوسّع من دائرة الفهم ذلك التقابل الذي يحدثه المؤوِّل بين النّصّ الروائيّ ونصوص روائيّة أخرى لمبدعين يتقاطعون معه في القضيّة التي تستنطقها الرواية، وهذا الإجراءات على صعوبته ومشقّته إلّا أنّه يراهن على تحقيق فهم واسع ودقيق في الآن نفسه.

4/ تقابل النصّ والسياق:

للنّص سياقان يؤثّران فيه؛ سياق الإنتاج وسياق التّأويل، فإذا كان النّص محصّلة لسياقات كثيرة، فأنّه يسير عبر الزّمن وفق خطّ أفقيّ ويتعرضّ للقراءة في كلّ نقطة من نقاط هذا الخط، وهنا تظهر أهمّية سياق القراءة، فكلّ سياق قرائيّ يهب من المعطيات ما لا يهبه سياق آخر، فقد ينظرف التأويل بظروف سياسيّة واجتماعيّة ودينية وغيرها، ممّا يعمل على توجيه وجهة معيّنة، كما أنّ السياق قد يهب من آليات القراءة ما لا يهبه سياق آخر، وهذا مدرك معروف، فالمعرفة في تطوّر مستمر، ممّا يجعل آليات القراءة تتجدّد وتتطوّر بما تتيحه المعرفة من نظريات ومفاهيم.

5/ تقابل الرواية مع العنوان:

للعنوان أهمّيّة كبيرة في تأويل النّصوص كونه يعتبر واجهة العمل الأدبيّ وخلاصته الدّقيقة ومفتاح فهمه، خاصة في عصرنا الحاضر الذي أصبح فيه العنوان وسيلة إشهاريّة ودعاية ترويجيّة للعمل الأدبيّ، ممّا يجعل مقاربته مع النّصّ أمراً بالغ الأهميّة؛ فهو أوّل لقاء بين النّص والقارئ، وعلى أساسه يبني القارئ افتراضاته التّأويليّة، فإذا كان العنوان «**بنية لغويّة صغرى متولدّة عن بنية كبرى (النصّ) ومستقلّة بذاتها، من حيث كونها منفصلة خطّيّاً عن النصّ**»[1]، فإنّ مقاربته مقاربة تأويليّة لا بدّ منها سواءً أكان العنوان كلمة أم جملة، لبناء قاعدة تأويليّة ممهّدة لتأويل الوحدة الكبرى وهي النّصّ، وهناك مقاربات معاصرة كثيرة تستنطق العنوان خاصّة في النصّ الرّوائيّ[2] الذي يلعب فه العنوان دوراً سيميائيّاً وتأويليّاً، كما يلعب دوراً تعريفيّاً وإشهاريّاً.

---

[1]– محمّد بازي، **العنوان في الثقافة العربيّة، التشكيل ومسالك التأويل**، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2012، ص ص 21–22 بتصرّف.

[2]– ينظر على سبيل المثال كتاب: **العنوان في الرواية العربيّة**، لعبد المالك أشهبون، محاكاة للنشر والتوزيع، دمشق، ط1، 2011. ففي هذا الكتاب يطرح الباحث الأهمّية القصوى للعنوان في النّقد المعاصر، إلى درجة الدّعوة إلى توسيع دائرة البحث فيه تحت مسمّى (علم العنوان)، ينظر: الصّفحة 16 من الكتاب.

أمّا على مستوى التأويل التّقابليّ فإنّ مقابلة العنوان بالنّص خطوة مهمّة من خطوات المقاربة التّأويليّة، فإلى أيّ مدى استطاع العنوان أن يكون العنوان لسان النصّ؟ تجيب أطروحة التأويل التقابليّ عن هذا السّؤال في وضع أدبيّ أصبح فيه العنوان أداة ترويجيّة، وأصبحت بعض العناوين لا تعكس ما هو معطىً في النّصّ، خاصّة على مستوى الرواية التي تبدو فيها أهمّيّة العنوان أمراً لا ينكره أحد، فإذا مثّلنا برواية **(انقطاعات الموت)** لجوزيه ساراماغو، وجدنا العنوان مثيراً للتأويل، بل ومستفزّاً لفعل القراءة، نظراً لما يحمله من التّساؤلات وما يفرضه من افتراضات تأويليّة، فهل يمكن للموت مثلاً أن ينقطع؟ كيف ينقطع الموت؟ أهو غياب أم اضراب عن العمل؟، ماهي الخلفيّة الفلسفيّة لهذا التصوّر؟ وغير ذلك من الأسئلة التي يفرض العنوان طرحها نظراً لتفرّده وإثارته، ومن هنا نخوض رحلة البحث في ثنايا الرواية عن حقيقة هذا الانقطاع انطلاقاً من الفرضيّات التأويليّة التي تتحتّم علينا نظراً لطبيعة هذا العنوان.

المحور الثاني: التقابلات الصّغرى في النّصّ الرّوائيّ:

تنتقل المقاربة التأويليّة التقابليّة من الخاصّ إلى العام، سعياً لتحقيق الشموليّة في القراءة عن طريق الإلمام بجميع زوايا النّصّ، فهي تحاول سدّ الثّغرات القرائيّة والهفوات التأويليّة الواقعة في المناهج السابقة، خاصّة وأنّ هذه المقاربة تتّخذ من النّقد الأدبيّ سنداً مهمّاً من أسنادها المعرفيّة. بعد الإحاطة بالتّقابلات الكبرى، والتي تعتبر كمؤطّرات خارجيّة للفعل الروائيّ، تغوص المقاربة التّقابليّة في تخوم النصّ عن طريق استكناه التّقابلات الدّاخليّة التي يحملها النّصّ ميدان المقاربة، وأهمّ هذه التّقابلات:

1/ التّقابلات اللّغويّة:

تتجلّى خصائص اللّغة الطّبيعيّة في الخطاب الرّوائيّ كونه واسع المساحة طويل النّفس، ومن أبرز هذه الخصائص خاصيّة التّقابل؛ فنجد الكثير من التّقابلات البلاغيّة واللّونية والعدديّة والزمنيّة والمكانيّة والنفي الإثبات والفاعل والمفعول وغيرها، ممّا يعدّ عاملاً مهمّاً من عوامل الفهم، وبناء عالم الرّواية الذي يستنسخ من العالم الأكبر وهو الوجود المتقابل.

2/ تقابل الوصف والسّرد:

يقوم العمل الرّوائيّ على هاتين الدّعامتين، فهما أس الرّواية، فـ «**السّرد رواية للحدث في تناميه، والوقائع في جريانها، والوصف توصيف لغير معروف عند القارئ من طرف راوٍ يعرف الأوصاف بالعقل أو المعاينة والسّماع**»[1] هنا تظهر طريقة التّعامل مع هذا التّقابل البارز في الرّواية، فالأحداث مقابلة للأوصاف؛ السّرد يعتمد على الحركة، أمّا الوصف فيمتاز بالسكون والتوقّف، إذن نحن إزاء مقاربة بين الحركة والسّكون بالدرجة الأولى، فكيف يتكامل هذا المعطيان في تأطير العمل الرّوائيّ؟ لا شكّ أنّ صانع العمل الرّوائيّ يوزّع التقنيتين توزيعاً فنّياً بليغاً ومقصوداً عن طريق الإبداع في خلق التناوب بينهما، وهذا ما تسعى التّقابليّة لإدراكه تحقيقاً للانسجام التّأويليّ، وتوسيعاً لمجال الفهم.

3/ تقابل الأمكنة والأزمنة:

لا تخلو رواية من عنصري الزّمن والمكان، بل هما لبّ التقنيتين المتقابلتين السّابقتين (الوصف والسّرد)، فيتكون نسيج الرّواية من فضاءات يختارها المبدع عن وعي، ويستعمل لتلك الفضاءات ما يناسبها من القالب الزمني، فكما أنّ إجراء التّقابل ضروريّ بين الزمان والمكان، فإنّ إجراء المقابلة بين الأمكنة مفتاح مهمّ لفهم مخبوء النصّ وبناء تصوّر عن الكاتب نفسه، فالأماكن لها دلالات كبيرة على خلفيات سياسية وتاريخيّة ودينيّة واجتماعيّة، ونفس الأمر يُسحب على الزّمن.

4/ التّقابل بين الشّخصيات:

الشّخصيات ركن محوريّ من أركان العمل الرّوائي، فيبذل الروائيّ جهده في اختيار الشّخصيات المناسبة لموضوع الرّواية: أدواراً أسماءً وأوصافاً وأجناساً وأعماراً وطبائع ووظائف حضوراً وغياباً، وكلّ هذا يوفّر للمقاربة التّقابليةّ مزيداً من مساحة المقاربة، فالشّخصيات تتوزّع

[1]– محمّد بازي، **نظريّة التأويل التّقابلي**، ص ص 348-349.

في الرواية توزيعاً تقابليّاً واضحاً متعمّداً من طرف الرّوائيّ، فلا تكمل المقاربة التّقابليّة للعمل الروائيّ إلّا وضعت الشّخصيات على محكّ التّقابل.

5/ التقابل الحواري:

الحوار مكوّن تابع لركن الشخصيات، فلا يكون الحوار إلّا بين الشخصيات التي يبنى عليه العمل الرّوائيّ، ولكن الحوار يعتبر أداة أساسيّةً في استنطاق الشّخصيات لمعرفة طبائعها وأفكارها ووظيفتها في الرّواية، وينقسم الحوار إلى خارجيّ وهو الذي يتمّ بين الشّخصيات وداخليّ يتمثّل في الحوار بين الشخص وضميره وبين ماضيه وحاضره، بين عقله وقلبه.

ومن هنا يظهر التّقابل في الحوار أمراً لا مرية فيه، وإدراك هذا التّقابل سرّ بليغ في فكّ كثير من غوامض العمل الروائيّ، خاصّة ما تعلّق بالشخصيات.

وخلاصة الأمر أن المقاربة التّأويليّة التقابليّة تقدّم نفسها بديلاً معرفيّاً جديداً لمقاربة النصّ الرّوائيّ عن طريق الإحاطة بجميع مكوّناته، ثمّ إدراك خيط التّقابل بينها لفكّ ملغوز الرواية وسبر أغوارها واستنطاق نصّها، فهي تفتح آفاقاً كثيرة وتجيب عن أسئلة مهمّة يطرحها النصّ الروائيّ، بل والسرديّ بصفة عامة.

المحاضرة العاشرة

التّقابل وتوابعه في خطاب التّفسير.

يعدّ خطاب التّفسير سنداً مهمّا من الأسناد المعرفيّة لبلاغة التّأويل وميداناً ثريّاً أخذت منه مادّتها، فهي تعتبر المفسرين نموذجاً تأويليّاً فريدا في طريقة التّعامل مع النصوص، ولهذا كان تتبّع طريقة المفسّرين في التعامل مع التّقابل أمراً ضروريّاً لإثبات الأصل المعرفيّ للنظريّة من جهة، ثمّ توسيع مجال تطبيقها.

1/ الكون المتقابل في القرآن الكريم:

الخطاب القرآنيّ خطاب فريد في نظمه ولغته وإيقاعه، ولكن الأهمّ من ذلك كلّه هو الكون المنتظم داخله، فقد أنطق اللّه الكون من خلال القرآن، ثمّ بيّن قوانين انتظامه، عن طريق الأزواج التي جعلها اللّه من مسلمات هذا الكون ﴿**وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**﴾[1]، لقد بنى اللّه الكون وأسّسه على قانون الثنائيات، ومن أدرك حقيقة هذا القانون فهم جانباً مهمّا من هذا الكون، وأدرك علاقته به ﴿**سبحان الذي خلق الأزواج كلّها مما تنبت الأرض ومن أنفسكم أفلا تبصرون**﴾[2]، وقدّ فصّل القرآن الكريم في هذه الأزواج تفصيلاً عجيباً وبيّنه بياناً لا لبس فيه، وأبرزُ الأزواج المذكورة في القرآن الكريم، والتي تبنى عليها أهمّ محاوره: (البقاء /الفناء)، (الخير /الشّر)، (الدّنيا/ الآخرة)، (الجنة/ النّار)، (الغيب/ الشهادة)، (الإيمان/ الكفر)، (الثواب/ العقاب)، (الجنّ/ الإنس)، (الذكر/ الأنثى)، وغيرها من الثنائيّة التي أدرك علماء التّفسير أهمّيتها في فهم الكتاب الخالد واستكناه المعاني منه.

---

[1]- سورة الذاريات، الآية: 49.

[2]- سورة يسن، الآية: 36.

يكشف لنا الرّجوع إلى خطابات التّفسير عن وعي دقيق بقضيّة التقابل أثناء بناء الفهم، والنّاظر في هذا التراث يرى كثيرا من التميّز والنبوغ في الاستباق إلى مخبآت القرآني الكريم الذي لا تنقضي عجائبه ولا تنفد دُرره، وهذا ما كان محلّ اهتمام نظريّة التأويل التقابليّ ومنطلقاً مهمّا من منطلقاتها، وفيما يلي أهمّ الأدوات التّفسيريّة ذات النّزعة التقابليّة في التّعامل مع الخطاب القرآني في ثوب تأويليّ تقابليّ معاصر يتماشى مع جديد الدّرس اللّساني والبلاغي المعاصرين:

1/ التقابلات الأفقيّة والتقابلات العموديّة:

تقدّم الحديث عن التّقابلات الأفقيّة والعمودية في المهاد النظريّ الذي قدمناه في محاضرة (الفهم بالتقابلات)، وفي هذا الموضوع نرى كيف تعامل علماء التّفسير مع هذين النوعين من التقابلات في ممارساتهم التأويليّة.

نلاحظ أنّ هذه الحركة التأويليّة قويّة الحضور في خطابات التّفسير، حيث ينطلق خطاب التّفسير من التقابلات الأفقيّة في البنية الجمليّة ثم تتحرك بشكل عموديّ للوصول إلى البنى العميقة التي تنافس المفسرون في بلوغها، خاصّة وأنّ النصّ القرآنيّ يمتاز بعمق لا محدود.[1]

2/ التقابلات الجسريّة (التقابلات المضاعفة):

تمثّل الاستعارة نقطة خلاف كبير بين المفسّرين نظراً لبنيتها اللّغويّة القلقة، وكذا غناها الدّلالي اللّامحدود، خاصّة إذا تعلقّ الأمر باستعارات القرآن الكريم (الاستعارات الربّانية) التي يعدّ الخوض فيها ضرباً من المغامرة وجنساً من المجازفة.

أثبتنا فيما مضى البعدَ التقابليّ للاستعارة، ورأينا أنها تطوي تقابلات كثيرة كالمستعار له والمستعار منه، والتقابل بين الحقيقة والمجاز، وبين الحسّي والمعنوي وغيرها من التقابلات، وفي هذا الموضع نعمّق النظرة التقابليّة للاستعارة من خلال خطاب المفسّرين، وبالخصوص

[1]– ينظر: محمّد بازي، **البنى التقابليّة**، خرائط جديدة لتحليل الخطاب، دار كنوز المعرفيّة، عمّان، ط1، 2015، ص11.

تفسير جمال الدين القاسمي **(محاسن التأويل)**، والطاهر ابن عاشور **(التحرير والتنوير)**، والألوسيّ **(روح المعاني)**.

يتوقّف هؤلاء الأعلام عند الاستعارات طويلاً مبيّنين مواطن تميّزها مظهرين مكامن إعجازها باسطين خلاف المفسرين حولها، وهذا إن دلّ على شيء فإنّما يدلّ على حساسيتها خاصّة إذا تعلّق الأمر بآيات العقائد، ومن الاستعارات التي كثر الخلاف حولها استعارة سورة الرّعد في قوله تعالى: ﴿**قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى والبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ والنُّور**﴾[1]، لا شكّ أنّ هذه الآية تتحدّث عن المؤمن والكافر، وهذا ظاهر من خلال السياق العام للآية، ولكنّ المفسرين اختلفوا في تجاوز هذه الاستعارات للمألوف، فهناك تعالق استعاريّ، أو بالأحرى خطاب استعاريّ متعدّد، ينبغي على المؤوّل أن يدقّق الحركة في داخله وينظّم انتقاله فيه، ولا يتمّ له هذا إلّا عبر «**جسر تأويليّ**»[2]، نميّز فيه بين الاستعارات المتوالية، ثمّ مكوّنات هذه الاستعارات والتقابلات الكامنة فيها، ثمّ الجمع بين هذه التقابلات لتحقيق فهم كامل للمراد من هذا الخطاب الاستعاري المضاعف.

ومن هنا فقد أثار المفسرون قضايا مهمّة تتعلقّ بالخطاب الاستعاري، وأشاروا إلى إمكاناته اللّامحدودة، ممّا كان أساسا معرفياً تبلور من خلاله مفهوم **التقابلات الجسريّة**، والذي يعدّ الأنموذج الفريد في تجاوز البنى الخطيّة إلى البنى العميقة، والذي يمكن أن نصوغه من خلال التقابل التالي (التقابل الذهني/ التقابل النصّي).

3/ التقابل في المثل القرآنيّ:

تعدّ الأمثال من أهمّ ركائز الخطاب القرآنيّ، كونها تَرِد في سبيل الإقناع، باعتبارها أدلّة عقليّة لا ينكرها ذو عقل سليم، ولا يمكن فهم الخطاب القرآنيّ دون فهم أمثاله. ومن الملاحظ

---

[1]– سورة الرعد، الآية: 16.

[2]– محمّد بازي، **البنى التقابليّة**، ص76.

على الأمثال بصفة عامّة أنّها تبنى على نسق تقابليّ، فكيف بالقرآن الكريم الذي يعدّ كوناً متقابلاً.

تنطلق بلاغة التّأويل في التنظير لقضيّة المقاربة التأويليّة للمثل القرآنيّ من جهود المفسّرين التي توقّفت عند فرادة الأمثال القرآنيّة وإعجازها وقوّة إقناعها، ومن الأمثال التي توقف المفسّرون عندها طويلا المثلُ الوارد في سور الرعّد في قوله تعالى: ﴿**أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رَابِياً، وَمِمّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ، كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْحَقَّ وَالبَاطِلَ، فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ**﴾[1]، يرتكز هذا المثل على مجموعة من التقابلات: كالماء النازل من السماء/ الماء السائل في الأرض، والسيل/ الزبد، المعدن/ زبد التذويب، العقل البدوي (الغراسة)/ العقل الحضري (الصناعة)، والتقابل الذي من أجله ضُرِب المثل وهو الحق/ الباطل.

هذه مجموعة من التقابلات الظّاهرة التي بُني عليها المثل، وهي أداة العبور إلى التقابلات الباطنية التي تفتح آفاق الفهم وتكشف طاقات هذا الخطاب الدّلاليّة والحجاجيّة.

5/ البنى التقابليّة العابرة للنّصوص:

تستقي بلاغة التّأويل هذا المفهوم من منهج تفسيريّ شهير هو تفسير القرآن بالقرآن، ويقوم هذا الاتّجاه التّفسيريّ الجمع بين آيات وكلمات القرآنيّ لتحقيق الفهم المراد، وتعتبر بلاغة التأويل هذا الإجراء سابقاً بعصره متجاوزاً لأوانه، كونه يقدّم آلية قرائيّة هامّة ومبتكرة تحرّر الكلمات من نصوصها وتربط العلائق بينها، ويتحقّق ذلك بـ«**العبور من بنية نصّيّة داخل السورة الواحدة إلى ما يقابلها في بنية نصيّة أخرى**»[2]، في نصّ أو أكثر من نصّ، وهذا التّعامل مع البنيات النصيّة اتّكأ عليه أصحاب هذا الاتّجاه اعتقاداً بأنّ القرآن كفيل بأنّ يفسّر بعضُه بعضاً، وأيّاً كان مرادهم فإنّ هذا الإجراء في نظر نظريّة التأويل التّقابليّ أساس متين لبناء مفهوم تقابليّ

[1]– سورة الرعد، الآية:17.

[2]– محمّد بازي، **البُنى التقابليّة**، ص 134.

بليغ يوسّع دائرة الفهم ويفسح مجال التأويل، كما يحقق شرطاً أساساً من شروط بلاغة التأويل ألا وهو الانسجام، فربط البنيات النصّيّة دليل على صحّة التأويل واستقامة مساره. وكاد ينفرد علماء التّفسير بهذا النوع من التقابل كون الخطاب القرآنيّ خطاب ربّاني في منتهى البلاغة وفي أقصى درجات الانسجام، وقد لا حظنا محاولة من حسام الدّين الرّومي في كتابه **(رسالة في قلب كافوريات المتنبّي من الميح إلى الهجاء)**، ولكنه استعملها في تحميل الكافوريات ما لا تحتمله، حيث يعمد إلى البنية النّصيّة من قصيدة المدح ويقابلها ببنية نصيّة من قصيدة الهجاء، ثمّ يجري المدح مجرى الهجاء ويخرّجه مخرجاً لا تتقبّله قواعد التّأويل.

وهنا تلفت بلاغة التّأويل في شقّها التّقابلي الأنظار إلى هذا الفنّ التأويليّ، الذي يعدّ فتحاً في عالم التأويل، خاصّة مع توفّر التقنيات التي تسهّل استدعاء البنيات المتشابهة في منتوج مبدع أو مجموعة من المبدعين.

6/ السياق والمساق:

يركّز علماء التّفسير على خطر إخراج الخطاب القرآنيّ عن سياقه الأوّل، لأنّ العودة إلى السياق الأصل لا نقول تبيّن المقصود فقط، وإنّما تفصل بين الأفهام المتعدّدة، لأنّ الخطاب الخالد (القرآن الكريم) محطّ اهتمام المواهب التأويليّة في كلّ زمان ومكان، ولهذا كان تأويله يتجدد وفق المعطيات الحادثة، ويتأثّر بالنوازل الطارئة، ولهذا كان التشبّث بالسياق الأصل حتميّة لا يجوز إغفالها ولا تجاوزها، بل ينبغي تنزيل السياقات المتغيّرة عبر الزمن على السياق الأوّل، لأنّ **المساق القرآنيّ**[1] مَرِنٌ طيّعٌ قابل لتعدّد القراءة، باسط بنيته لتعدّد الفهم، وتلك حكمة ربّانيّة حتّى يصنع اللّه به الأحكام في كلّ زمان ومكان. وقد ورد في كتب التّاريخ والأخبار من نبإ الذين عزلوا الخطاب القرآنيّ عن سياقه أخباراً كثيرة تجتمع على ما حدث في الأمّة من تفرّق وتمزّق، بل وقتل وعداء.

[1]– المساق هو (هو السياق الدّاخليّ)، وهو كذلك (قرائن المقال)، ينظر: محمّد بازي، **التّأويليّة العربيّة**، ص78.

7/ تقابل التّأويلات (الأفهام):

من الإجراءات التّقابليّة التي أسس لها علماء التّفسير وكانت سنداً للمقاربة التّأويليّة هي قضيّة تقابل التّأويلات، فالتّراث التّفسيريّ تراث عريض وغنيّ يكشف عن مخزون تأويليّ كبير، ومن المسلّم به أنّ التّأويلات المنسجمة تتّكئ على بعضها تعضيداً وتأكيداً، وإمّا تلخيصاً واختصاراً، وإمّا مدّاً وتوسيعاً، وعلى هذا الأساس يتضح الدّور البارز لاستحضار التّأويلات ومقابلتها، فهو:[1]

- يبيّن نتائج الاشتغال على معنى نصّ واحد وكيفيّة تحقيق الدّلالة.
- كيفيّة تحقيق الدّلالة وآفاق تباين الأفهام.
- استفادة التّأويلات من بعضها بعض.
- الاستفادة من نظام الفهم الحاصل في التّجارب السابقة.

لقد امتلأت خطابات المفسّرين الموثوقين بنقل آراء من سبقهم، نقلاً يفيض تواضعاً وينضح إجلالاً وينحني أدباً أمام تجارب السابقين، ويلهج اعترافاً لهم بالفضل والسّبق والتقدّم. وهذا ما ترومه بلاغة التّأويل من أمل في تساند تأويليّ ملؤه التّسامح والاعتراف.

وخلاصة القول بعد هذا العرض الموجز لبعض إسهامات علماء التّفسير في إثراء النّظريّة التّأويليّة البليغة، لقد وعى علماء التّفسير خطر التّأويل أوّلاً ثمّ سعوا إلى كبح جموحه وبيّنوا له مجال التحرّر، وسنّوا له سنن الفهم، دون المساس بمقصود الخطاب القرآني ولا التعرض لقداسته وهيبته، ولعلّ ما عرضناه من أمثلة يبيّن الكنوز التي يبلغها المؤوِّل دون المساس بشيء من سلطان الخطاب الإلهيّ، فالبنيات البلاغيّة مثلاً تفتح مجالا رحباً للتّأويل وفضاءً واسعاً يسدّ فاقة الفهم.

[1]- ينظر: محمّد بازي، **نظريّة التّأويل التقابلي**، ص ص 239-240.

المحاضرة الحادية عشر:

بناء التّقابل في النّصّ الشّعري.

يمثّل الشعر العربيّ أنموذجاً فريداً في اشتغال اللّغة الطّبيعيّة بكلّ خصائصها، غير أنّ التقابل يبقى الخاصيّة الأكثر حضوراً في الشّعر العربيّ على اختلاف مراحله وأنواعه وأغراضه، ولا شكّ في هذا فالشّعر لسان النّفس البشريّة التي تعيش في كون من التّقابلات، بل هي كون متقابل من الأمزجة والطّباع، ولهذا كان إدراك هذه التقابلات سبيلاً لفهم النصّ وفهم فلسفة صاحبه ونفسيته.

تقترح نظريّة التأويل التّقـــابليّ مجموعة من المستويات في مقاربة النصوص بصفة عامّة، تنقسم هذه المستويات إلى مستويين كبيرين هما: مستوى **التقـــابلات الخارجيّة (السياقية)**، ومستوى **التقابلات الدّاخليّة (النصيّة)**، وتختلف النصوص من حيث التقابلات المؤطّرة لها. وهنا يتحرّر المحلّل بالتقابل من قيود القالب إلى سعة النّص وما يهبه من تقـــابلات، وقد أفاض صاحب المشروع في التطبيق على نماذج من خطابات مختلفة في كتابه (تقابلات النصّ وبلاغة الخطاب)، وتوسيعاً لأفق التطبيق نختار نمـــوذجاً شعرياً جزائريّاً معاصرة، ونستشفّ منه أبعاد التّقابل في فكّ الملغوز وكشف المخبوء، وقد اخترنا هذا النموذج كمثال عن الشّعر المعاصر الذي يغلب عليه الترميز يكتنفه الغموض.

التّقابل في ديوان (ملاك رجيم) للشاعر محمّد بوطغّان:

يستفزّ الدّيوان الإجراءَ التّقابليّ من خلال عنوانه المبنيّ على التّقابل، والذي يوحي بما يطويه هذا الدّيوان من تقابلات وما يحويه من ثنائيات، فالتّقابل يتوزّع بشكل ملفت للنّظر في ديوان (ملاك رجيم) سواء أكان على المستوى العموديّ أم على المستوى الخطّي، وتقفّي هذا التّقابل والوعي به يفضي إلى كشف جانب مهمّ من نبوغ الشّاعر من جهة، كما يبيّن جوانب مهمّة من تفكيره بصفة عامّة، ويشهد الشّاعر محمّد بوطغّان بنفسه على انبناء ديوانه على

التّقـــــابل من خلال لقاء عقدناه معه حول تجربته بصفة عامة وديوانه على وجه الخصوص، فهو يؤمن بمسلّمة الثّنائيات التي يقوم عليها الكون، وأنّ الإنسان جزء من هذا الكون يتجلّى فيه ما يتجلّى في الكون، كما أنّ الإنسان يقف موقفاً تقابليّاً مع مكوّنات الكون الأخرى.

ولم يتأتّ هذا الموقف علي سبيل المصادفة وإنّما عن تجربة طويلة ومطالعات كثيرة جعلت الشّاعر يتبنّى فلسفة معيّنة في القضايا الكبرى التي يتأسّس عليها الكون، كـــ(الوجود/ العدم، الوالد/المولود، الأرض/السماء، الإنسان/ الطّبيعة، الفناء/ الخلود، الحبّ/ الكره، الحرب/ السلام،....).

وقد أفضى بنا النّظر في نصوص هذا الشّاعر إلى أنّ التّقابل بأنواعه ظاهرة طاغيّة على شعره، وممّا يميّز هذا النّظام هو أنّ الشاعر وعاه ثمّ أبرزه للمتلقّي واضحاً لا يحتاج إلى بيان إلّا ما ندر من ذلك، وقد تعمّده الشّاعر استجابة لنوازع نفسيّة وانعكاساً لمواقف مرحليّة، وقد يظهر لنا موقفاً معيّناً من الوجود المنبني على التّقابل، والمتأمّل في مراحل عمره يدرك سرّ التّقابل الطّاغي على شعره ، ولعلّ ما يؤكّد لنا هوسَ التّقابل هو قضيّة الاحتمال الذي أصبح يخيّم على شعره، ونعني بذلك تراوحَ أبياتٍ من شعره بين العديد من المعاني.

أ- تقابل الحالات:

أوّل ما تركز عليه نظريّة التّأويل التّقابلي هو تقصّي الحالات المختلفة للشّاعر، إذ من مسلّمات الحياة أنّ الإنسان تسري عليه قوانين الكون حلوها ومرّها، ولعلّ النّصوص التي ينتجها إنّما هي أنفاس كلّ مرحلة وزفرات كلّ حالة.

إذا رجعنا إلى شاعرنا وجدنا ذاك جليّاً واضحاً، فديوانه الذي بين أيدينا يمثّل جزأين متقابلين، ومردّ هذا التّقابل دون مرية هو المنعطف هو التحوّلات السّريعة والأحداث المتتابعة التي ألمّت بالشّاعر، وممّا تجد الإشارة إليه أنّ الكتاب الثّاني من الدّيوان ينبئ عن منعطف صارخ في مسيرة الشّاعر، منعطف رسمته هذه الأحداث وخطّته تلك الفواجع المتتابعة، ولا شكّ

أنّ موت ولده **قيس** يعتبر أكبر فاجعة وأقسى رزيّة، فهو الجرح الذي لا يندمل والدّمع الذي لا يجفّ.

ومن خلال هذا يلحظ قارئ الدّيوان أنّ الجزء الأوّل منه أغنيات مفعمة بالإرادة، محمّلة بالرغبة الجامحة في الحياة، مهووسة بمعرفة الغامض وفكّ الأسرار، وقد يعتري الشّاعر فيها نوبة من الحنين إلى الوحدة والغربة والحزن، ولكنه حنين يخامر فلسفة الفهم، ويتقصّى تخوم الظّواهر، وفي كثير من الأحيان يساير الأحداث التي تكتنف الإنسان المعاصر والقضايا التي تشغل تفكيره، ومن أمثلة ذلك قصيدة **عرس الضّفاف**:[1]

عرس فتوحات

وطيف قصيدة تأتي

ضفائرها الأغاني

والدّفاتر

...

ففي الجزء الأوّل تتضّح بجلاء قوّة الشّاعر وإرادته من جهة، كما تظهر لنا فلسفته العميقة نحو الأشياء والظّواهر، وعليه نجد هذا الجزء غنيّاً بالموضوعات ثريّاً بالقضايا المتقابلة ممّا نراه مفصّلاً في الأوراق القادمة.

أمّا الجزء الثّاني فإنّه يمثّل مرحلة السّخط على الحياة التي تخلّت عن فلذة كبده قيس في منتصف الطّريق، واستمرّت في المسير دون رحمة تاركة الشّاعر واقفاً مكبّلاً بأحزانه المتجدّدة، مشتّتاً بالحيرة المتناسلة من رغبته في الحياة أو البقاء في النقطة التي ترجّل فيها الولد. وهنا يظهر الدّيوان متقابلاً تقابل الحالات التي اكتنفت حياة الشّاعر.

وممّا تجدر الإشارة إليه أنّ في حياة الشّاعر محطّات كثيرة انعكست على تفكيره ثمّ ارتسمت في نصوصه، ركّزنا على التي ذكرنا لأنّ الشّاعر يعلن أنّ موت الولد بداية لحياة مخالفة تماماً

[1]– محمّد بوطغّان، **ديوان ملاك رجيم**، منشورات الجزائر تقرأ، الجزائر العاصمة، ط/ ، د ت، ص 27.

للحياة الأولى، والدّليل على ذلك أنّ الجزء الثّاني من الدّيوان يقدّمه بإهداء مرير لقيس الذي تخطّفه الموج ومحى ضحكته إلى الأبد:[1]

إهداء

إلى روحي ابني قيس

روح ابني قيس

ابني قيس

قيس

(هبوب ريحي فادح وملح بحرك خائن)

ب- الإنسان مقابلاً للكون (الإنسان/الدّين، الحاضر/الغائب، الوالد/الولد، الحرب/ السّلام، الفساد/ الإصلاح...):

يمثّل الإنسان محورَ الكون في نظر الشّاعر، والمخلوق الذي وجد من أجله كلّ شيء، والإنسان في فلسفة الشّاعر في حوار دائم مع الكون، ولعلّ التّساؤل الأساس الذي ظلّ يطرحه الشّاعر الإنسان على الكون، ما هو موقعي فيك أيها الكون، وإلى أيّ شيء يفضي بي المسير الدّام فيك، ويتّضح هذا من خلال المقطوعة التّالية والتي عنونها ب(**غاية**):[2]

غايتي في الوصول عدائيّة

ونهائيّة

وهي تسكنني وبمطلق ماهيتي

ولكنها أبديّة

حاجتي للمسير

---

[1]- الدّيوان، ص119.

[2]- الدّيوان، ص50.

إنّ هذا التّساؤل العميق يعيدنا إلى كثير من الشّعراء، بل والعقلاء الذين دائماً يطرحون الأسئلة حول النّهايات ويثيرون الإشكالات حول المآلات، فقيمة الطّريق إنّما تتحدّد بالغاية، غير أنّ الشّاعر يعلن قوّته في التحدّي ويبدي رغبته في الوصول، وهذا السّؤال أبديّ ينبني على التّقابل بين البداية والنّهاية، فالتّأويل بالتّقابل يستحضر طرف الثّنائيّة الغائب عن النّص، لأنّه به يكتمل المعنى ويتحقّق الفهم، وهنا عرضنا هذا النصّ على نصوص الدّيوان الأخرى، لنتفاجأ بأنّ الشّاعر تكتنفه الحيرة حول البدايات حول التّناسل حول الوالد والولد حول قرون السير الطّويلة:[1]

طينة البدء...

يرتسم الخلق

شفرة في اليدين

فوجود الإنسان في الكون قديم ورحلته طويلة، فالمبدأ طين والطريق مليء بالمتناقضات محفوف بالصّراعات الدّاخليّة والخارجيّة:[2]

بماذا سنقنع أبناءنا

بشر طيّبون....؟

وبما ذا سنقنعهم أنّنا مؤمنون

تخيّرنا الربّ حتى

يكون لنا الوحي...

والأرض والآخرة؟

بماذا سنقنعهم

أنّنا منذ عشرة آلاف عام

---

[1]- الدّيوان، ص37.

[2]- الدّيوان، ص ص 38-39.

غرسنا حدائقنا في الفضاء

وكنّا حملنا إلى الآدميّة

أصواتها...؟

ومن خلال هذا التّساؤل حول الأصل والمبدإ، يطرح الشّاعر قضيّة الدّين ومن ثمّ قضيّة الغيب، وهو في الحقيقة يلخّص إشكالاً مهمّاً مفاده: هل الإنسان الذي يعدّ محور الكون هو في مستوى هذا الدّور؟ وهل قدّم الإنسان للكون ما به يستقيم ويسعد؟

لا شكّ أنّ الشّاعر يستنطق الواقع الذي يعيش والزّمن الذي يكابد؛ زمن الحروب والقتل والتّشريد والفقر والظّلم، من سيقتنع بطيبة البشر في هذا الزمان.

وهنا يتحوّل الشّاعر إلى قضيّة عظيمة وثنائيّة خالدة ألا وهي النّسل **(الوالد/ الولد)**، هذه الثنائيّة التي تجعل الوالد والمولود في تواجه، بل حساب وعتاب، ما ذا قدّم الوالد للولد. والقضيّة تحيلنا دون ريب إلى بيت أبي العلاء والذي أوصى بأن يكتب على قبره:

هذا جناه عليّ أبي ولم أجن في الدّنيا على أحد

إنّ مصائر الأبناء مرهونة بما يصنعه الآباء، وإذا كان الآباء منذ البدء يفسدون في الأرض فأيّ حجّة سيقتنع بها الأبناء، والشّاعر يرسم هذه الثّنائيّة بعمق وفلسفة توحي بسخطه على النّاس خاصّة حملة الدّين الذي يفسدون الواقع ويتعلّقون بالغائب، فماذا جنى الأبناء من حدائق الغيب التي نعلّق بها الآباء وأفسدوا الحياة لأجلها.

وهذا التحليل العجيب للشّاعر ينبني على عديد التّقابلات الأساسيّة في الكون **(الانسان/ الكون، الوالد/الولد، الإنسان/ الدّين، الحاضر/ الغائب، الجنّة/ الواقع، الماضي/ الحاضر، ....)** وهنا ندرك جانباً من جوانب إبداع الشّاعر، وسرّا من أسرار تأثيره وهو القدرة العجيبة على صناعة التّقابل ووضع الثنائيات وجهاً لوجه، والحكم في النّهاية هو القارئ.

ت- الشّاعر محاوراً (طاهرة كونيّة) الرّيح:

إذا كانت الرّيح مصدراً مهمّاً من مصادر التّصوير في الشّعر العربيّ بصفة عامّة، فلا نجد شاعراً إلّا وللريح نصيب في شعره بمختلف أحوالها وأنواعها، ريح عشق أو ريح كرم وسخاء، أو ريح حرب ودمار.

أمّا عن شاعرنا فإنّ الملفت للنّظر في ديوانه ظهور الرّيح بشكل دائم خاصّة في شقّه الثّاني، والصّورة التي رسمها الشّاعر هي أنّها تبدو كشريك للشاعر في همومه وأنّها في كثير من الأحيان تشكّل موطن بوحه ومكمن ثقته وملاذه من الواقع المتعب:[1]

أيّتها الريح

«أنا» لا يرافقني،

وستسافر تذاكري وحقائبي وحدها

إلى وجهة أعدمت ملامحها..

أيّتها الرّيح

«أنا» لست معي

وعلى هذا النّمط من الحوار يهندس الشّاعر كتابه الثّاني من الدّيوان، فلا نكاد نجد قصيدة إلّا ومطلعُها نداء الرّيح، وثناياها البوحُ للرّيح، إنّ الشّاعر في هذا النّداء المتكرّر يرفع الرّيح إلى مستوى وعيِه ويعلن اتّحاده معها، ولعلّ الشّاعر في هذا الاتّحاد مع الرّيح يعلن هروبه من البشر وهمّه بالانسحاب من الحياة:[2]

أيتّها الريح

هزّي بجذع الخيبات كلّها؛

لكن لن أساقط جنائزيّاً ملفوفاً

---

[1]- الدّيوان، ص124.

[2]- الدّيوان ص 125.

في ورق النعي الأنيق

أيّتها الريح

هذا أوان غيابي...

ولا يمكن ذكر جميع الشواهد التي تكشف عن هروب الشّاعر من الحياة وارتمائه في أحضان الرّيح واعتبارها ملاذه الوحيد ومهربه الفريد والفاهم الوحيد له، ومن هنا يخالف الشّاعر جميع الصّور المرسومة عن الرّيح في التّراث الشّعريّ العربيّ العريض، فريح الشّاعر محمّد بوطغّان هي مكمن البوح ومأمن السّرّ، يعرض عليها خيباته وانكساراته فلا تتشفّى فيه، إنّها تنصت له وتمتصّ انهياراته وتحتوي مواجعه الكثير المبثوثة في هذا الدّيوان.

المحاضرة الثانية عشر:

تأويل ذي الوجهين في البلاغة العربيّة:

الكناية، التّعريض، التّلميح، التّهكّم، التّوريّة.

لا شكّ أنّ فنون البلاغة هي التي تفتح الخطاب على التعدّد وتمنحه ذلك الثراء الدّلالي والكثافة المعنويّة، وكلّما كان الخطاب غنيّاً بفنون البلاغة كان قادرة على استفزاز القارئ، وقد اشتهرت ظواهر بلاغيّة طريفة جمعت تحت مسمّى (ذي الوجهين)، وهذه الظّواهر تنفرد بقبولها لتخريجين معنويّين مختلفين، وقد يكونان متناقضين، ومن أشهر هذه الظواهر:

الكناية، التّعريض، التّلميح، التهكّم، التورية. ومن الأسباب التي جعلت أنظار التأويل تلتفت إلى هذه هي أنّها تحوّل المعنى العام للخطاب من وجه إلى وجه، ولا يبقى الاحتمال متعلّقاً بها فقط، والحكم في توجيه المعاني والدّلالات إنّما يرجع إلى السياقات التي تكتنف الخطاب وكذا المقاصد التي توجّهه.

أ_ الكناية:

تعدّ الكناية من أبرز الظّواهر اللّغويّة الدّالة على تجنّب الإفصاح والتّصريح وركوب لجّة التملّص والتّلميح، وتعرّف الكناية في اصطلاح البلاغيّين بأنّها « **اللفظ المستعمل فيما وضع له في اصطلاح التخاطب للدلالة به على معنى آخر لازم له، أو مصاحب له، أو يشار به عادة إليه، لما بينهما من الملابسة بوجه من الوجوه**»[1]، **وهذا ما جعل الخطاب الحامل للكناية ينصرف إلى معنيين، قد يكونان حتّى متناقضين،** ولنا في الشّعر العربيّ أمثلة كثير، لعلّ أشهرها تلك الحيرة التي كسى بها المتنبّي بعض مدائحه في كافور الإخشيديّ، والتي هي محلّ خلاف إلى اليوم، وقد ركّز **محمّد بازي** على هذا النموذج الشّعريّ المكنّى أشدّ التركيز على اعتباره يوضّح غاية التوضيح البنيةَ التقابليّة للكناية، فقد ارتكز عليها بشكل واضح من أجل أن

[1]– عبد الرحمن الميداني، **البلاغة العربيّة أسسها وعلومها وفنونها**، ج2، ص 135.

يجعل خطابه المدحيّ الكافوريّ يحتمل الوجهين، ويمكن اعتبار الكافوريات كناية كبرى خاصّة حين يتعلّق الأمر بالسّواد الذي ظلّ يعزف على أوتاره في كلّ قصيدة، ففي المثال التّالي يكنّي عن سواده بالسّحاب:[1]

أَبَا كُلِّ طِيبٍ لَا أَبَا المِسْكِ وَحْدَهُ وَكُلَّ سَحَابٍ لَا أَخُصُّ الغَوَادِيَا

ونظير هذين البيتين كثير في الكافوريات إذ صفة السّواد تشكّل ــ كما قدّمنا ــ محوراً هامّاً في معجم الكافوريات ومفتاحاً لفكّ خدع المتنبّي، فلا تخلو قصيدة من ذكر السّواد تصريحاً أو تلميحاً، أمّا المثال السّابق فهو من أوّل قصيدة قابل بها كافوراً، ومع ذلك لم يستطع كتمان ما يبطنه من مشاعر البغض والاحتقار، فبالإضافة إلى أنّه يكني عن سواد لونه فإنّه كذلك «**يكنّي عن نتن ريحه**»[2]وتجدر الإشارة إلى أنّ المتنبّي في أغلب كناياته يركّز على ماضي العبوديّة والأسف على الحاضر الذي يحزّ في نفس المتنبّي الرّاغبة في السّلطان المهووسة بالملك.

وإذا رجعنا إلى الشّطر الثّاني نرى صورة السّحاب المركوم ماثلة نصب أعيننا لأنّ المتنبّي يشبّه كرم كافور بالسّحاب دون غيره، والغريب أنّ معظم معاجم اللّغة تعرّف السّحاب على أنّه شديد السواد ولا يترك أثراً من غيث ولا ماء، وفي هذا دليل إشارة إلى بخل كافور وتماطله عن الوفاء بوعده وقضاء دينه. ومن بديع الكنايات المتّكئة على التّصوير القرآني الذي لا تردّ صورته ولا تدفع حجّته، الكناية التّالية:[3]

وَبِأَيَّامِهِ التِي انْسَلَخَتْ عَنْـ ـهُ مَا دَارُهُ سِوَى الْهَيْجَاءِ

فقد ضمّن البيت كناية عجيبة تتّكئ على الآية الكريمة: ﴿**وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ**﴾[4] فكافور هو الليل الذي انسلخ منه النّهار، وفي هذا كناية بيّنة عن سواد

---

[1]– البرقوقيّ، ج2، ص 1278.

[2]– حسام الدّين الرّومي، **رسالة في قلب الكافوريات من المديح إلى الهجاء**، ص5.

[3]– البرقوقي، ج1، ص115.

[4]– الآية 37 من سورة يس.

لونه الذي لم يدع قصيدة إلّا وعزف فيها لحن السّواد في أبدع الألحان ورسم فيها خيال العبوديّة بكلّ ما يحمله البغض من دوافع الانتقام. ولعلّ اتّكاءه على التّعبير القرآنيّ زاد القول قوّة وتأكيداً للصّورة.

ب ـ التّعريض:

يقترب التّعريض من الكناية في إفادة الكلام معنى غير الظّاهر إلّا أنّه أشدّ عمقاً وأكثر غموضاً، وذلك أنّه «**لا يشترط فيه لزومٌ ذهنيٌّ، ولا مصاحبةٌ، ولا ملابسةٌ ما بين الكلام وما يراد الدّلالة به عليه، إنّمـــا قد تكفي فيه قرائن الحال، وما يفهم ذهناً بها من توجيه الكلام**»،[1] وعلى هذا فإنّ التّعريض أشدّ استفزازاً للذّهن، وأكثر تحريكاً للفهم، فبِغياب القرينة المباشرة يغدو الإمساء بالمعنى جهداً تأويليّاً يعتمد على الوعي بالظّروف والتنبّه لإشارات الكلام.

وإذا عدنا إلى شعر المتنبّي وجدنا التّعريض خاصّيّة مميّزة له ومهيمنة عليه، استقطب عقول الباحثين لكثرته وتميّز صناعته[2]، ولغرابته في كثير من الأحيان، خاصّة ما كان منه في كافور، حيث يغـــوص المتنبّي في تخوم المعنى ويمرّر ما لا يفهم إلّا بتقليب النّظر وإعمال الفكر، وأكثره تعريضه بحاجته التي هي سبب قدومه على كافور، وكذا تمـــاطله عن موعوده واستعجـــال الشّاعر لمطلوبه، ولنا في الكافـــوريات أمثلة كثيرة منها قوله يعرض بجبنه:[3]

وَقُدتَّ إِلَيْهَا كُلَّ أَجْرَدَ سَابِحٍ يُؤَدِّيكَ غَضْبَاناً وَيُثْنِيكَ رَاضِياً

---

[1]– عبد الرحمن حبنّكة الميداني، **البلاغة العربيّة: أسسها وعلومها وفنونها**، دار القلم، دمشق، ط1، 1996، ج2، ص152.

[2]– ينظر على سبيل المثال: منير سلطان، **الصورة الشعريّة في شعر المتنبّي، (الكناية والتّعريض)**، منشأة المعارف، الاسكندريّة، مصر، ط/، 2002. و: إبراهيم صالحي، **التّعريض في مدائح المتنبّي الكافوريّة**، رسالة ماجستير، إشراف: عمّار شلواي، جامعة محمّد خيضر، بسكرة، 2009/2008.

[3]– البرقوقي، ج2، ص1282.

في التّعبير بغضبه عند مشيه للمعارك دليل صارخ على كرهه للحظة السير لملاقاة الأعداء، ومشاهد الطّعن والقتل التي يعشقها الشّجعان ويترقّبونها، وهنا نتذكّر البيتين المشهورين في مدح سيف الدّولة:[1]

وَقَفْتَ وَمَا فِي الْمَوْتِ شَكٌّ لِوَاقِفٍ كَأَنَّكَ فِي جَفْنِ الرَّدَى وَهْوَ نَائِمُ

تَمُرُّ بِكَ الْأَبْطَالُ كَلْمَى هَزِيمَةً وَوَجْهُكَ وَضَّاحٌ وَثَغْرُكَ بَاسِمُ

فالقادة الحقيقيّون يظهرون البسمة وانشراح الصّدر في الإقبال على المعارك، وتحدّي الموت واقتحام الأهوال. وهنا يظهر بجلاء التّقـــابل الحاصل بين القائدين والفرق الصّارخ بين المدحَين، فسيف الدّولة ينعم بالابتسام في قلب المعركة حبّاً في القتال ورغبة في المخاطرة وتحدّي الموت، في حين أنّ كافور لا يظهر الابتسامة إلّا وهو راجع من المعركة معافىً في بدنه منعّماً في سلامته. ومن التّعريض عن خوفه وتذكيره بعبوديّته:[2]

وَأَسْمَرَ ذِي عِشْرِينَ تَرْضَاهُ وَارِداً وَيَرْضَاكَ فِي إِيرَادِهِ الْخَيْلَ سَاقِيَا

إنّ إيراد الخيل وحلب الغنم هي مهمّة العبيد، وهنا يعرّض المتنبّي بوظيفة كافور الحقيقيّة، فكيف له بخوض المعارك وحمل السّلاح. إنّ الأنسجة اللّغويّة والمعنويّة الدّقيقة هي التي تحيل إلى مثل هذا الانفراط في المعنى والتشظي في الدّلالة، والموجّه الأساس لهذا التّأويل إنّما هو اعتبار ما كان من حال كافور وقومه، فهذه السّوابق هي التي جعلت مثل هذه المؤشّرات أمراً غير مرغوب فيه في مداح كافور، وهو ما عزف عليه المتنبّي طوال مدحه لكافور، فهو يتكلّف الأنساق من أجل إقحام ذكريات كافور الأليمة.

ومن التّعريض بسواد لونه وقبح وجهه وفساد روحه:[3]

لَبِسْتَ لَهَا كُدْرَ الْعِجَاجِ كَأَنَّمَا تَرَى غَيْرَ صَافٍ أَنْ تَرَ الْجَوَّ صَافِيَا

---

[1]- البرقوقي، ص ص1023-1024.

[2]- المصدر نفسه، ص 1281.

[3]- المصدر نفسه، ص ن.

وهنا يكنّي عن شيئين اثنين: الأوّل سواد لونه، والثّـاني اضطراب شخصيّته وحبّها للتّشـاؤم، ليتجاوز المتنبيّ الظّاهر المعروف للنّاس إلى الباطن الذي أدركه هو، وكأنّه يقدّم لنا تحليلاً نفسياً لشخصيّة كافور، تلك النّفسيّة المضطربة المريضة التي لا تحبّ الصّفو ولا تعرف قوانين السّكينة، بل لا تفرّق بين الحالات التي تكتنفها ولا الأجواء التي تحيط بها، ولعلّ اصطناع العلّة وتلفيقها لكافور جرأة قد تكلّف المتنبّي الكثير.

ج/ المعاني المتضادّة في التهكّم:

التهكّم من الأساليب البلاغية التي تحتمل الوجهين غير أنّه يمتاز بطابعه السّاخر ومقصدها الجارح، ويمتاز عن الكناية والتعريض والتورية باحتمال الضّدّين، أي يوجّه توجيهين متناقضين تمام التناقض، ولا يستعمل هذا الضرب من الكلام إلا في معرض السّخرية لأنّه «**عبارة عن الإتيان بلفظ البشارة في موضع الإنذار والوعد في مكان الوعيد، والمدح في معرض الاستهزاء**»[1]، وهذا من أبرز وجوه الكلام المتقابل في لونه المتضاد، وقد ورد هذا الأسلوب كثيراً في القرآن الكريم من ذلك قوله تعالى: ﴿**بَشِّرِ المُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَاباً اَلِيماً**﴾[2] فكيف تلتقي البشارة مع العذاب الأليم، واللّهُ عزّ وجلّ يأتي بهذا الأسلوب ليزيد العقوبة عقوبة والعذاب عذاباً، ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿**خُذُوهُ فَاعْتِلوه إِلَى سَواءِ الجَحِيمِ ثُمَّ صُبُّوا فَوقَ رأسِه مِن عَذَابِ الحَمِيمِ، ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ العزيزُ الكَرِيمُ**﴾[3]، وهنا يظهر التقابل الصريح في هذا الأسلوب، ممّا يجعل التأويل وتوجيه الخطاب وجهاً آخر أمراً محتّماً، ففي هذه الآيات نرى مرارة الاستقبال هذا القول من طرف أصحاب النّار الذي يتقلّبون بين أنواع العذاب ويزحفون تحت ألوان الذلّ والصغار، ليقرع هذا الخطاب أسماعهم ويحرق أكبادهم، ويذكّرهم باستكبارهم في الحياة الدّنيا ذاك الاستكبار الذي جرّهم إلى مهاوي الذّل ومواضع الخزي في الآخرة.

---

[1]- ناصر شبانة، **المفارقة في الشعر العربيّ الحديث**، دار الفارس، الأردن، ط1، 2000، ص271.

[2]- سورة النساء، الآية: 138.

[3]- سورة الدّخان، الآيات: 47، 48، 49.

د/ التّقابل في التورية:

تتبني التورية مثل الكناية على المضمر والمصرّح به؛ إذ هي: « **أن يذكر المتكلّم لفظاً مفرداً له معنيان على سبيل الحقيقة، أو على سبيل الحقيقة والمجاز، أحدهما ظاهر قريب يتبادر على الذّهن وهو غير مراد، والآخر بعيد فيه نوع خفاء وهو المعنى المراد**»[1]، ولا يخفى ما في هذا الأسلوب من تقابل لا يدرك إلّا بالنّظر الدّقيق والمعرفة المسبقة بالمشترك وكذا الجناس اللّذين هما أساس بناء التوريّة، ففي قوله تعالى: ﴿**الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ، وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ**﴾[2] تورية في لفظ (النّجم)، والتي قد تفهم على أنّها الكوكب الذي في السّماء، غير أنّ ذكر الشّجر يدلّ على أنّ المعنى المقصود هو النجم النباتيّ الذي ينبت أسفل الأشجار، هذا التّقابل بين المفهوم الذي ذكرناه وبين المصرّح به المذكور في الآية دليل على أنّ كثيراً من التّوريات لا تدرك إلّا لذوي الاستعداد اللّغوي.

ومن الأمثلة المشهورة قول الشاعر:

كَأَنَّا لِلْمُجَـــــاوَرَةِ اقْتَسَمْنَا فَقَلْبِي جَارُهُمْ وَالدَّمْعُ جَارِي

فكلمة (جاري) في نهاية البيت تحتمل معنيين اثنين:

الأوّل: بمعنى الجوار وهو قرب المحلّ.

أمّا الثاني فيعني جريان الدّمع من العين على الخدّ.

ومن الأمثلة المشهورة أيضا:

أَيُّهَا المُعْرِضُ عَنَّا حَسْبُكَ اللهُ تَعَـــالَى

تحتمل كلمة (تعالى) معنيين اثنين هما:

الأوّل: هو وصف الله سبحانه بالعلوّ.

أمّا الثاني: فهو فعل أمر يتضمّن دعوة القدوم.

---

[1]– عبد الرحمن بن حبنكة الميداني، **البلاغة العربيّة أسسها وعلومها وفنونها**، ج2، ص373.

[2]– سورة الرحمن، الآية،

وهنا نرى أهميّة التورية في توجيه الخطاب، فإذا حملنا المثال على المحمل الأوّل تضمّن البيت برمّته معنى يفيد الدّعاء والحسبلة على هذا المعرض، أمّا إذا حملناه على المحمل الثاني فإنّه يتضمّن معنى الترجّي والاستعطاف، فانظر إلى تقابل المعنيين الذي فرضته التورية الكامنة في هذا البيت.

والتورية تدلّ على ثراء اللّغة العربيّة وتوسّعها في الدّلالة، فهي تمنح المتكلّم الاختيار ما يعبّر به عن مراده تصريحاً أو تلميحاً ولا يحتاج إلى الكثير من الألفاظ، فحسبنا من التورية مثالاً عن احتمال اللّفظ لأكثر من معنى.

هـ/ التلميح:

التلميح هو استراتيجيّة بلاغيّة يتموضع في المخاطِب وضعاً لا يبين فيه عن مراده ولا يفصح عن قصده، وسمّيناها استراتيجيّة لأنّها تضمّ كل الظواهر البلاغيّة والأسلوبيّة التي تجعل الخطاب منفتحاً على التّأويل، لما فيه من كثرة القرائن اللّغويّة والبلاغيّة التي تجعل بنيته تتراوح بين الظاهر والباطن، ويتجاذبها المنطوق والمفهوم، وقد جعلتها الدّراسات التداوليّة المعاصرة استراتيجيّة خطابيّة لا يمتطيها إلّا ذو معرفة بالقوانين اللّغويّة والأسرار البلاغيّة.

ومن هنا تعدّ مفاهيم البلاغة مادّة غنيّة للمقاربة التأويليّة التقابليّة، ولهذا عُدّت البلاغة العربيّة سنداً مهمّا من الأسناد المعرفيّة لنظريّة التأويل التقابليّ، وممّا تجد الإشارة إليه أنّ المحلّل بالتقابل لا بدّ له من الإحاطة بالفنون البلاغيّة المختلفة ويتحكّم في الفروق الدّقيقة بينها، وتكتمل المقاربة التّأويليّة التقابليّة للفنون البلاغيّة بالدراية بالسياقات الداخليّة والخارجيّة التي تؤطّر الخطاب بصفة عامّة، كما أنّ الاجتهاد في معرفة مقاصد المخاطِبين التي تخالف في كثير من الأحيان البنية النصّية سواءً أكان ذلك متعمّداً مقصوداً، أو عارضاً في الخطاب.

المحاضرة الثّالثة عشر:

التأويل والمفارقة

تراهن نظريّة التأويل التقابليّ على البنى التقابليّة التي تتيح للمؤوّل الانتقال عبر الخطّ الأفقي ليعبر إلى البنى العميقة التي من خلالها يصنع المعنى ويضاعفه، وقد رأينا كثيرا من المفاهيم التي تنقل المؤوّل من الظاهر إلى الباطن وتستهويه لولوج عالم البنى الخفيّة. وفي هذا الموضع نتناول المفارقة باعتبارها بنية لغويّة تمتاز بتعدّدها وغموضها، ممّا يجعلها مدعاة للتأويل وعرضة للتفكيك.

أـ مفارقة النّقيض:

المفارقة من المفاهيم الغامضة التي استقطبت أقلام الباحثين واستفزّت عقولهم واستنفرت أفهامهم، ومع ذلك بقيت عصيّة على التّحديد الدّقيق، إذ إنّها تنسب إلى حقول معرفيّة مختلفة كالمنطق والنّقد والبلاغة، ولا شكّ في أنّ المفاهيم كلّما تداعت عليها الفنون وأقبلت عليها العقول تمنّعت عن التّحديد وشردت عن التّعريف، وهذا من السنن الثّابتة في المعارف قديماً وحديثاً، فعلى صعيد المنطق والفلسفة تعرّف المفارقة على أنّها «**تعبير ظاهر الصّحّة لكن بدليلين متناقضين**»[1]، وهنا تبدو صلة المفارقة وثيقة بالبرهان إذ إنّها عمليّة استدلاليّة متميّزة باعتمادها على مبدإ التّناقض، الذي يقوم بدوره على مبدإ الصّدق والكذب.

واشتهرت مفارقات كثيرة حسب هذا التحديد، اعتبرت مقياساً لكثير من المفارقات، من ذلك **مفارقة محامي سيسرون**[2]، والتي تروي واقعةَ تعاقد بروتا غوراس مع تلميذه أوتلس على أن يعلّمه المحاماة مقابل أن يدفع له بعد أوّل قضيّة يربحها، ولكنها بعد مدّة عزف التّلميذ عن التعلّم، فقرّر أستاذه أن يرفع الدّعوى للمحكمة، فتكون هذه أوّل قضيّة يرافع فيها أوتلس، وهنا مكمن المفارقة:

---

[1]– حسان الباهي، **اللّغة والمنطق**، ص157.

[2]– ينظر: المرجع نفسه، ص ص 165–166.

- الأستاذ رابح في كلتا الحالتين؛ فإذا خسر أوتلس القضيّة فإنّه يدفع التّكاليف بناءً على حكم المحكمة، وإذا ربح القضيّة فأنّه سيدفع التّكاليف أيضاً لأنّ ميثاقه مع أستاذه ينصّ على أنّ الدّفع بعد أوّل قضيّة يربحها.
- أوتلس رابح في كلتا الحالتين؛ فإذا ربح القضيّة فلن يدفع بناءً على قرار المحكمة، وإذا خسر القضيّة فلن يدفع كذلك بناءً على العقد المبرم مع أستاذه.

ومثل هذه المفارقة نجد **مفارقة سانشو بانزا**[1] ومفادها أنّ مجموعة من الجنود رابطوا على مدخل إحدى المدن يسألون كلّ عابر للحدود، فإن كان صادقاً لا يشنق، ويشنق إذا ثبت كذبه، وفي أحد الأيام جاءهم شخص، فسألوه فأجابهم (جئت لأُشنق)، إذا شنقه الجنود فهو صادق وبالتّالي لا يجب أن يُشنق، وإن تركوه كان كاذباً وبالتّالي يستحقّ الشّنق.

وهنا نلمس المأزق الذي تضع فيه المفارقةُ الذّواتِ الصّانعة لها والذّوات المخاطَبة بها بالنّظر إلى المكوّن اللّغويّ وكذا الوقائع الموجّهة لاحتمالات المفارقة، فيتبادل المتخاطبان دور الضّحيّة، كما يتبادلان دور المنتصر. وهذا التناقض الذي تحمله المفارقة هو رهان الفلسفة وخلاصة أربابها؛ إذ الحياة حشد من المتناقضات والمتعارضات التي لا يمكن الإمساك بها في إطار موحّد من الإدراك، ولا يمكن للإنسان أن يفكّر بمعزل عن عالمه، ولا يمكن له أن يعبّراً منفصلاً عن محيطه، وعلى هذا الصعيد المنطقيّ تتبوّأ المفارقة مركزاً مهمّا كونها «**لعبت دوراً أساسيّاً في إعادة ضبط بعض التّصوّرات الدّلاليّة**»[2]، حيث إنّ هذه الوضعيّة القلقة جعلت كثيراً من الدّارسين يطرحون إشكالاً مهمّاً هو: «**هل المقام عاجز عن القيام بدوره في تحديد مسمّى العبارة، أم أنّ الوضع يستدعـــي إجراءات أخرى جديدة تمكّننا من الاستجابة لخصوصيات المفارقة**»[3] وأيّاً كانت الإجابة فإنّ الذي تراهن عليه المفارقة هو استثارة الذّهن وتحريك الفهم.

---

[1]- ينظر: حسان الباهي، **اللغة والمنطق**، 166.

[2]- المرجع نفسه، ص160.

[3]- حسان الباهي، **اللغة والمنطق**، ص 82.

ب/ المفارقة اللّغويّة:

تحرّرت المفارقة تحرّرت من ضيق الفلسفة والمنطق إلى سعة اللّغة وما تتيح من انفتاح، فبعد أن كانت المفارقة تتبني على التّناقض صارت تجمع في ديوانها كثيراً من المفاهيم البلاغيّة التي تعني في مجملها معنى غير ما يفهم من ظاهرها وهاهنا أصبحت المفارقة من أبرز الظّواهر الفنيّة التي تميّز الخطاب الإبداعيّ خاصّة إذا تعلّق الأمر بأولئك الذين اشتهروا بسعة الاطّلاع، وكمال العقل، وجدل الفكر.

ب ـ1/ حقيقة المفارقة:

المفارقة «**تعبير لغويّ بلاغيّ يرتكز أساساً على العلاقة الذّهنيّة بين الألفاظ أكثر ممّا على العلاقة النّغميّة أو التّشكيليّة، وهي لا تنبع من تأمّلات راسخة داخل الذّات فتكون ذات طابع عنـــائيّ أو عاطفيّ، ولكنّها تصدر أساساً عن ذهن متوقّد ووعي شديد للذّات ومن حولها**»[1] ومن هنا فإنّنا نكشف من خلال المفارقة عن عوالم كثيرة؛ تلك العوامل التي اكتنفت صـــانع الخطاب، وترسّخت في ذهنه خاصّة تلك المفارقات النـــاتجة عن تجربة طويلة مع الحياة. فالأوضاع المقلوبة والموازين المختلّة والقوانين والأحكام غير العادلة تُشعر المبدع بطبيعة علاقته مع الحياة، حيث يرى أنّها تمارس معه ضرباً من المخاتلة واللّعب، ممّا يجعله يمارس نوعاً من الإعتام الخطابيّ عن طريق المفارقة للهروب من هذه الحياة الملأى بالمتناقضات[2]، فيصنع عالماً خطابيّاً خاصّاً به يترجم فيه موقفه من الحياة عن طريق هذا البناء اللّغوي. وممّا تجدر الإشارة إليه أنّ أكثر المبدعين استعمالاً للمفارقة هم اللذين فهموا قوانين الحياة وأدركوا حقيقة الناس، من أمثال أبي الطيّب المتنبّي وأبي العلاء المعري وبعض الشعراء المعاصرين من أمثال البردوني والجواهري وغيرهم.

---

[1]– نبيلة إبراهيم، **المفارقة**، مجلّة فصول، القاهرة، المجلد السابع، العددان 3و4، 1987، ص132.

[2]– ينظر: هيثم جديتاوي، **المفارقة في شعر أبي العلاء المعري، دراسة تحليلية في البنية والمغزى**، دار اليازوري، إربد، الأردن، ط/، 2011، ص 89.

3/ مظاهر التقابل في الخطاب المفارق:

يتكوّن خطاب المفارقة من خمسة عناصر تبيّن المتقابلات التي يضمّها هذا الخطاب، وهذه العناصر هي:[1]

أ/ ازدواج المعنى: وذلك بانبنائها على مستويين مستوى سطحيّ والآخر ضمنيّ.

ب/ تنافر الإدراك: وهو شكل من أشكال ازدواج المعنى ولكنه يشترط التّضاد.

ج/ خداع الأداء: أو المكيدة الخطابيّة التي تتطلّب معرفة بخدع الكلام وأساليب المراوغة.

د/ حيّز الضحيّة: أو ضحيّة الأثر وهو الذات محلّ المفارقة.

هـ/ الذات المفارقة: أوّل ذات مفارقة هب الذات المنتجة للمفارقة، أمّا الذات المفارقة الأخرى فهي الذات المؤوّلة، والتي تبدع في التحرك داخل المفارقة بين بنياتها الافقيّة وبنيتها العموديّة، وكذا بربط العلاقة بين طرفي المفارقة.

يظهر من خلال النّظر في بنية المفارقة المتجلّية في العناصر الثلاثة الأولى (الازدواج والتنافر والخداع) أنّ المفارقة تتّكئ على إمكانات التقابل البلاغة خاصّة ما يتعلّق بذي الوجهين فتحقّق هذا التقنّع الخطابيّ. يمكن اعتبار المفارقة في ثوبها المعاصر مفهوماً واسعاً يضمّ كثيراً من المفاهيم البلاغيّة ذات الازدواج أو التعدّد، ومن هنا فإنّ وعي الفارقة والتسلّل إلى بنيته العميقة يفترض معرفة دقيقة بالأساليب البلاغيّة المختلفة. وقد قدّمنا من الأمثلة حول هذه الأساليب البلاغيّة ما هو كافٍ لفهم هذه البنية التقابليّة المثيرة والمستفزّة في الآن نفسه.

[1]– ينظر: عاصم شحادة عليّ، **المفارقة في معهود الخطاب العربي، دراسة في البنية والدلالة**، مجلة الأثر، جامعة ورقلة، العدد10، 2011، ص ص 4-5.

المحاضرة الرّابعة عشر:

تقابل السياقات

اهتمّت كثير من الدراسات بموضوع السياق كونه المرافق الأوّل في إنتاج النَّص والمؤثّر فيه، وكلّ تناول السياق من زاوية معيّنة أو نوع معيّن، وتأتي بلاغة التأويل، لتعيد النّظر في السياق وتجدّد الاهتمام به منبّهة على خطر الجهل به أو إهماله، ومن ضمن اهتمامها الجديد بالسياق بيّنت مختلف السياقات التي تكتنف الحدث الإبداعيّ، ثمّ أشارت إلى الأهميّة البالغة في مقابلة تلك السياقات بعضها ببعض من خلال إجراءات التأويل التقابليّ، وتستند هذه المقاربة على تصنيف السياق إلى ثلاثة سياقات هي: سياق الإنتاج، وسياق التأويل، وسياق النصّ (المساق).

1/ سياق الإنتاج:

هو الظروف المسبّبة أو المرافقة لإنتاج النصّ، سواءً أكانت ظروفاً نفسيّة أو اجتماعيّة أو دينيّة أو سياسيّة أو تاريخيّة أو اقتصاديّة، ومهما يكن من أمر فإنّ النّصّ مظروف بهذه السياقات قلّ هذا التأثر أو كثر، ولا يمكن بأيّ حال من الأحوال عزل النصّ عن سياقه، وهذا ما يشدّد عليه محمّد بازي في الفقرة التّالية: «**والحال أنّنا نؤكّد على ضرورة إعادة الدفء لعمليّة القراءة والتّأويل، عبر مواجهة النصوص بسياقاتها التاريخيّة والاجتماعيّة والنفسيّة، حتى نستطيع الوقوف على دواعي الكتابة ومنشأ المعاني، وفي ضوء خطّة تقابليّة، ينجلي الغامض على ضوء الواضح، والمجهول يدرك على ضوء المعروف، والنصّ يفهم على ضوء سياقه الخاصّ والعام، وليس هذا الإجراء في نهاية المطاف إلّا إجراء من إجراءات تقابليّة أخرى تسهم كلّها في تجلية المعنى وبلوغ المقصد**»[1]، تضع المقاربة التقابليّة النصّ في مواجهةٍ حتميةٍ بينه وبين سياقاته الأولى ارتداداً به إلى موطنه الأصل، واستكمالاً لمستويات المقاربة

[1]– محمّد بازي، **التّأويليّة العربيّة**، ص 269.

التقابليّة التي تهدف إلى لمّ شعث القراءة ورأب شرخها، وذلك بالإحاطة بجميع العناصر المؤطّرة للنّص داخليّاً وخارجيّاً، فالسياق حكَم مهمّ في توجيه الخطاب، ولنا في أسباب النزول مثال صارخ عن احتكام النصّ إلى سياقه وارتداده إليه، وإلّا أباحت العقول لنفسها بما يرضي هواها ويسدّ جشع بدعتها، وقد نقلت لنا الأيام كثيراً من المنزلقات العقديّة والسياسيّة والاجتماعيّة الناتجة عن الجهل بالسياقات المصاحبة لولادة النصّ، هذا من جهة ومن جهة أخرى يمكن للسياق أن يجعل النصّ قلقاً لا يستقر على معنى نظراً لمعطيات معيّنة تكتنف النصّ، كما هو الشّأن في مدائح المتنبّي لكافور، فبنيتها المدحيّة لا تخالف ما جرت عليه العرب في سنن المدح، ولكنّ السياق السياسيّ السائد في ذلك الوقت والسياق النفسيّ الحرج الذي كان يعيش المتنبّي جعل النقاد غير مرتاحين لعاطفة المتنبّي ومن ثمّ إلى لغته، وهذا ما جعل كثيراً من المتلقين يحملون هذه المدائح محمل الهجاء، وهذا إن دلّ على شيء فإنّما يدلّ على أهميّة عرض النصّ على سياقه الأوّل عن طريق المقابلة بين البنى المؤطّرة له وبين الحقائق التي صاحبت مولده.

2/ سياق التّأويل:

من الخطابات ما يمتاز بالخلود والبقاء، ممّا يجعله يتعرّض لقراءات مختلفة باختلاف الزمان والمكان، فعلى مستوى الزّمان نرى تجدّد المعارف واستحداث آليات القراءة، ممّا يسهّل الغوص إلى أعماق النصّ وتفجيره بالدّلالات، وهذا ظاهر بيّن في عصرنا الحاضر حيث سهّلت التقنيّة جمع شتات النصوص، كما أصبحت المناهج القرائيّة تستعين حتّى بالعلوم الدقيقة وعلم الأحياء والنظريات الاجتماعية والنُّظم السياسية وغيرها من أجل استخراج أدقّ المعاني المغمورة في النصّ، وهنا يطرح المنظّر (محمد بازي) إشكالاً طارئاً ومحيّراً: «**هل يسير العالم نحو نهاية المعنى؟**»[1]

[1]– محمّد بازي، **نظريّة التأويل التقابلي**، ص 433.

إنّ السبب الرئيس وراء طرح هذا الإشكال هو المعطيات التي تمنحها المعرفة للقارئ كلّما تقدّم الزّمن، ولا نحيد عن السياق القرائيّ الراهن الذي أصبح فيه المؤوّل يفوق المبدع ثقافةً ومعرفة، «**وأصبحت مرجعيات المتواصلين أقوى من بلاغات المبلغين، ومن نصوص المؤلّفين، ومن وعظ الواعظين، حينئذ سيكون إنتاج النصوص مثل فقاعات مائيّة تسبح في الهواء قليلاً ثمّ تتلاشى، وستصبح الكتابة مثل لهو الأطفال بالماء والصابون**»[1] وهذا هو الواقع النقديّ الذي ليس له دافع، غير أنّ بلاغة التّأويل تسعى جاهدة إلى الدّعوة إلى الاقتصاد في آليات القراءة وعدم الإسراف في المعنى، فيذوب الإبداع في سيل المعارف وينتهي المعنى وتنتهي معه وظيفة الأدب وتنقضي حينها لذّة التلقي.

3/ السياق الدّاخلي:

هو البنى الداخليّة المكوّنة للنصّ المؤوَّل، والنصّ أيضاً عالم من البنى المتجاورة التي تعدّ منطلق كلّ رحلة تأويليّة، من الجزء إلى الكلّ ومن الكل إلى كلّ أكبر منه؛ من الكلمة إلى الجملة، ثمّ النصّ ثمّ النصوص الأخرى، ولا يمكن مغادرة النصّ دون إدراك بناه العميقة ودلالاته المغمورة، وقد رأينا في خطاب التّفسير كيف تتطالب المعاني وتتضاعف في آية واحدة، وهذا الأمر يسحب بكلّ دقّة على النصوص البشريّة خاصّة المعاصرة منها، تلك التي تلبس ثوب الرّمز وتمتطي سبُل الغموض.

لقد أدركت بلاغة التّأويل خطر السياق في توجيه القراءة، وهول عزل النصوص عن سياقاتها الأصليّة، ولعلّ أهمّ ما نبّهت عليه بلاغة التّأويل وهي تصنّف السياقات، قضيّة سياق القراءة، وهو السياق الذي أحدث كلّ مآزق التّأويل عبر مسار تراثنا التأويليّ العريض؛ فالتعامل النهِم مع آليات القرائيّة المتزايدة في كلّ سياق تأويليّ خطَر محدق ونذير شؤم على الممارسة التّأويليّة، ينبئ بزوالها وانهيار صرحها، وهذا ما جعل الامتداد في القراءة مرهون بمدى ارتدادها

[1]– محمّد بازي، **نظريّة التأويل التقابلي**، ص434.

إلى الأصل، ومدى ملاءمتها لبنيات النصّ، لتغدو القراءة التّأويليّة للسياق تقوم على المقابلة بين السياقات الثلاثة تكميلاً وتوفيقاً.

القرآن الكريم برواية ورش عن الإمام نافع، الدار العالمية للتجليد، القاهرة، ط5، 2011.

1/ المصادر والمراجع:

1. إبراهيم أسيكار وآخرون، **النّموذج التّأويليّ التّقابلي، معالم التّأصيل ومستويات التّنزيل**، دراسات محكّمة في أعمال محمّد بازي، مقاربات للنّشر، المغرب، 2018
2. ابن الأثير، **المثل السّائر**، تحقيق أحمد الحوفي وبدوي طبانة، مكتبة النّهضة، مصر، ط/، 1959.
3. ابن رشيق، العمدة **في محاسن الشّعر وآدابه ونقده**، دار الجيل، بيروت، ط/، دت.
4. أبو عمر الجاحظ، **البيان والتبيّن**، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط/، 1423.
5. عماد حاتم، **أساطير اليونان**، دار الشرق العربيّ، بيروت ـ لبنان، ط/، 1994
6. حازم القرطاجنّي، **منهاج البلغاء وسراج الأدباء**، تحقيق محمّد الحبيب بلخوجة، دار الغرب الإسلاميّ، بيروت، ط3، 1995.
7. حافظ إسماعيل علوي، **الحجاج مفهومه ومجالاته**، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط/، 2010.
8. حسان الباهي، **اللّغة والمنطق، بحث في المفارقات**، دار الأمان، الرباط، المغرب، ط1، 2000.
9. حمو النّقاري، **منطق الكلام؛ من المنطق الجدلي الفلسفي إلى المنطق الحجاجي الأصولي**، الدّار العربيّة للعلوم ناشرون، بيروت، ط1، 2010.
10. السيّد أحمد عبد الغفار، **ظاهرة التّأويل وصلتها باللّغة**، دار المعرفة الجامعيّة، القاهرة، ط/، 1998
11. شفيع السّيّد، **قراءة الشّعر وبناء الدّلالة**، دار غريب، القاهرة، ط/، 1999
12. طه عبد الرّحمن، **تجديد المنهج في تقويم الـتّراث**، المركز الثّقافي العربي، الدّار البيضاء–المغرب، ط1، 1994.

13. ـــــــــــــ، **في أصول الحوار وتجديد علم الكلام**، المركز الثّقافي العربي، الدّار البيضاء–المغرب، ط2، 2000.

14. عـادل مصطفى، **فهم الفهم، مدخل إلى الهرمنـوطيقا، نظريّة التّأويل من أفلاطـون إلى جـادامير**، دار رؤية، القـاهرة، ط1، 2007

15. عبد الرّحمن البرقوقي، **شرح ديوان المتنبّي**، مكتبة نزار الباز، المملكة العربيّة السّعوديّة، ط/، 2002.

16. عبد الرّحمن حبنكة الميداني، **البلاغة العربيّة: أسسها وعلومها وفنـونها**، دار القلم، دمشق ـ سوريا، ط1، 1996

17. عبد القاهر الجرجاني، **أسرار البلاغة**، تحقيق: محمود شاكر، دار المدني جدّة، ط1، 1991.

18. عبد اللّطيف عادل، **بلاغة الإقناع في المناظرة**، منشورات ضفاف، بيروت – لبنان، ط1، 2013.

19. عبد الله السّرحان، **التدبّر وعلاقته بمصطلحات: التّأويل والاستنباط والفهم والتّفسير**، مكتبة الملك فهد، الرياض، السعوديّة، ط/، 2009.

20. عبد الهادي بن ظافر الشّهري، **استراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية**، دار الكتب الجديد المتّحدة، ليبيا، ط1، 2004.

21. علي حرب، **التّأويل والحقيقة، قراءات تأويليّة في الثقافة العربيّة**، دار التنوير، بيروت، ط2، 2007

22. علي الشبعان، **الحجاج والحقيقة وآفاق التّأويل**، دار الكتاب الجديد المتّحدة، الأردن، ط1، 2010.

23. عمارة ناصر، **الفلسفة والبلاغة – مقاربة حجاجيّة للخطاب الفلسفي**–، الدّار العربيّة للعلوم، بيروت–لبنان، ط1، 2009

24. ـــــــــــــ، **الهرمينوطيقا والحجاج، مقاربة لتأويليّة ريكور**، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2014

25. محمّد بازي، التّأويليّة العربيّة، نحو نموذج تساندي في فهم النّصوص حازم والخطابات، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2010.

26. ـــــــــــــ تقابلات النصّ وبلاغة الخطاب، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2010.

27. ـــــــــــــ، **العنوان في الثقافة العربيّة، التشكيل ومسالك التأويل**، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2012

28. ـــــــــــــ **نظريّة التّأويل التقابلي، مقدّمات لمعرفة بديلة بالنّصّ والخطاب**، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2013.

29. ـــــــــــــ **صناعة الخطاب، الأنساق العميقة للتأويليّة العربيّة**، دار كنوز المعرفة، الأردن، ط1، 2015.

30. ـــــــــــــ **البنى التّقابليّة، خرائط جديدة في تحليل الخطاب**، دار كنوز المعرفة، الأردن، ط1، 2015.

31. ـــــــــــــ، **البنى الاستعاريّة، نحو بلاغة موسّعة**، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2017.

32. محمّد بن علي السّكّاكي، **مفتاح العلوم**، دار الكتب العلميّة، بيروت، د ت.

33. محمد بن أبي بكر الرازي، **مختار الصّحاح**، تحقيق: يوسف الشيخ محمّد، المكتبة العصريّة، بيروت ـ لبنان، ط5، 1999

34. محمّد عفيفي، **نحو النّصّ، اتّجاه جديد في الدّرس النّحوي**، أحمد عفيفي، مكتبة زهراء الشّرق، القاهرة، ط1، 2001،

35. ناصر شبانة، **المفارقة في الشعر العربيّ الحديث**، دار الفارس، الأردن، ط1، 2000

36. هيثم جديتاوي، **المفارقة في شعر أبي العلاء المعري، دراسة تحليلية في البنية والمغزى**، دار اليازوري، إربد، الأردن، ط/، 2011.

المجـــــلّات:

1. مجلّة فصول، القاهرة، المجلد السابع، العددان 3و4، 1987
2. مجلة الأثر، جامعة ورقلة، العدد10، 2011،
3. مجلّة فتوحات، جامعة عباس لغرور، خنشلة، العدد2، جوان 2015
4. مجلّة تمثّلات، جامعة تيزي وزّو، العدد الأوّل، 2015،
5. مجلة المقّري، جامعة المسيلة، العدد5، ديسمبر 2019.

الدّواوين الشعريّة:

1. الخطيب التّبريزي، **شرح ديوان أبي تمام**، تحقيق: راجي الأسمر، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، د ت.
2. عبد الله الجبوري، **ديوان أبي الشّيص الخزاعي وأخباره**، المكتب الإسلامي، بيروت، ط1، 1984.
3. محمّد بوطغّان، **ديوان ملاك رجيم**، منشورات الجزائر تقرأ، الجزائر العاصمة، ط/، د ت.

الفهرس:

الموضوع: الصفحة

مفردات المقياس: 1

المراجع الأساسية للمقياس: 2

مقدّمة:.....4

المحاضرة 01: الجهاز المفاهيميّ 6

1/ البلاغة لغة واصطلاحاً.....6

2/ التأويل.....8

أ التّأويل في الثّقافة العربيّة:.....8

1/ مفهوم التّأويل في التّراث العربيّ:.....9

2/ التأويل في الفكر العربي المعاصر.....12

ب/ التّأويل في الثّقافة الغربيّة: 14

1/ أصول المصطلح في الثّقافة الغربيّة القديمة: 14

2/ التّأويل في الثقافة الغربيّة المعاصرة:.....16

3/ بلاغة التأويل: 17

المحاضرة 02: قواعد التأويل وحدوده 18

1/ حدود التأويل: 18

2/ قواعد التأويل: 20

المحاضرة 03: التيارات التأويليّة 22

1/ التأويلية الحجاجية: 22

2/ التأويليّة الفكريّة: 23
3/ التأويليّة البليغة: 24
المحاضرة 04: بلاغة التأويل والمؤوّل وانسجام التأويل 25
1/ بلاغة التأويل: 25
1ـ 1/ مشروع بلاغة التّأويل.....28
1ـ 2/ مبررات وجود بلاغة التأويل.....28
1 ـ 3/ الأسناد المعرفيّة لبلاغة التأويل 30
1 ـ 4/ نظريات بلاغة التأويل 30
2/ بلاغة المؤوِّل 31
3/ انسجام التأويل 32
المحاضرة 05: المعنى وبلاغة التأويل 35
1/ الوجود والمعنى؛ أيّهما أسبق؟ 35
2/ مسارات بناء المعنى 36
3/ مستويات بناء المعنى 37
المحاضرة 06: من بلاغة النص إلى التأويلية البليغة 41
1/ بلاغة النصّ: 41
2/ بلاغة التأويل: 49
المحاضرة 07: الأساس التقابلي في البلاغة العربيّة. 53
1/ وعي النقاد والبلاغيين القدماء لقضيّة التقابل 53
2/ التقابل في بعض الظواهر البلاغية 54
المحاضرة 08: الفهم بالتقابلات: 58
1/ النصّ وفق التصوّر التقابلي 58

2/ مفهوم التأويل التقابلي 59
3/ مستويات التقابل 62
المحاضرة 09: التقابل في النصّ الروائي:.....63
1/ التقابل في الدراسات السرديّة.....63
2/ التحليل التقابلي للرواية 64
المحور الأوّل: التّقابلات المؤطّرة الكبرى للرواية: 64
1/ تقابل نصّ الرواية والتاريخ والمجتمع والذات:.....64
2/ التقابل بين المؤلّف والنّص والقارئ: 65
3/ تقابل تجربة الكاتب مع كتاباته الأخرى: 65
4/ تقابل النصّ والسياق: 66
5/ تقابل الرواية مع العنوان: 66
المحور الثاني: التقابلات الصّغرى في النّصّ الرّوائيّ: 67
1/ التّقابلات اللّغويّة: 67
2/ تقابل الوصف والسّرد: 68
3/ تقابل الأمكنة والأزمنة: 68
4/ التّقابل بين الشّخصيات: 68
5/ التقابل الحواري: 69
المحاضرة 10: التقابل وتوابعه في خطاب التفسير: 70
1/ الكون المتقابل في القرآن الكريم: 70
2/ التقابلات الأفقيّة والتقابلات العموديّة: 71
3/ التقابلات الجسريّة (التقابلات المضاعفة): 71
4/ التقابل في المثل القرآنيّ: 72
5/ البنى التقابليّة العابرة للنّصوص: 73

6/ السياق والمساق: 74
7/ تقابل التّأويلات (الأفهام): 75
المحاضرة 11: بناء التقابل في النصّ الشعريّ: 76
1/ التقابل في ديوان شعري معاصر: 76
أ/ تقابل الحالات 77
ب/ الانسان مقابلا الكون: 79
ج/ الشاعر محاوراً (ظاهرة كونية) الريح:.....82
المحاضرة: 12: تأويل ذي الوجهين في البلاغة العربيّة: الكناية، التعريض، التلميح،
التهكّم، التورية: 84
أ/ الكناية: 84
ب/ التعريض: 86
ج/ التهكّم: 88
د/ التورية: 89
هـ/ التلميح: 90
المحاضرة: 13: التّأويل والمفارقة: 91
أـ مفارقة النّقيض:.....91
ب/ المفارقة اللّغويّة: 93
ج/ مظاهر التقابل في الخطاب المفارق: 94
المحاضرة 14: تقابل السياقات: 95
1/ سياق الإنتاج: 95
2/ سياق التأويل: 96
3/ السياق الداخليّ: 97

المصادر والمراجع: **99**